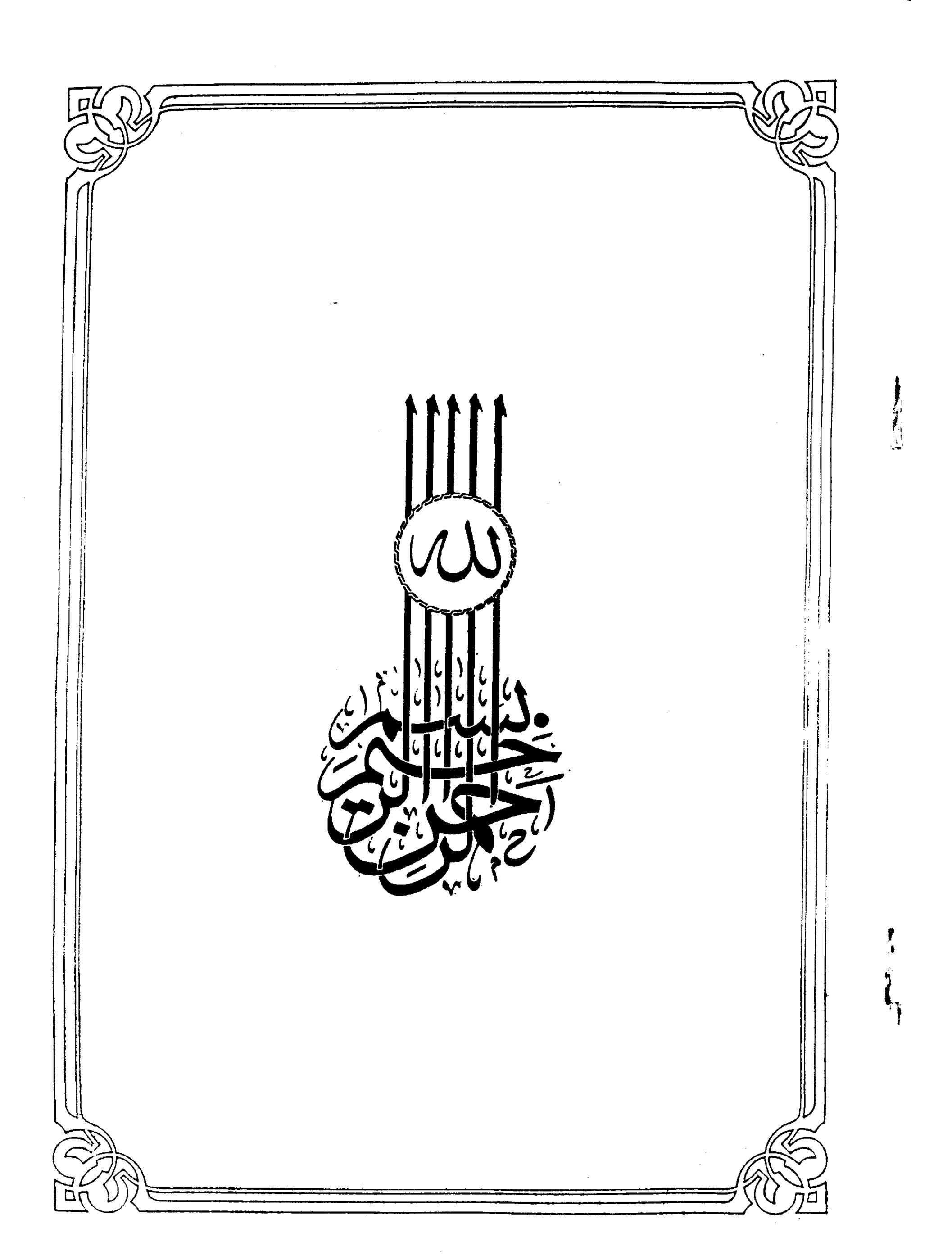
﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ﴾

صلاح الدين أبو العنين

حـــكاية البَشَــــرِ

.... علمياً

شمس الفكر


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلاة وتسليما كثيرا

راوي هذه الحكاية .. هو الله الخالق العظيم ...
وفى الأرض ... صخورها وماؤها ومرعاها
وفى السماء ... دخانها وشمسها وطغياها
وفي الإنسان ... بشرته ونعومتها وفحواها
وفى الحفرية ... مخها وعمرها ويداها

البداية .... والوجود

لم يكن غريبا على الإنسان أن يبحث عن أصله ... من أين؟ وكيف؟ ومتى؟ .... وإلى أين؟!

فإذا ما قال العلماء الماديون : إن فى الإنسان شواهد مثل التى فى القرود والحيوانات والطير كفقرات العمود الفقرى السفلى (الفقرات العصعصية) التى توحي بأنهاكانت ذيلا فيما مضى للإنسان؛ وأن نقطة دارون التي فى أذنه تماثل ما فى أذن القرد. وأن ثمة جفن ثالث ضمر فلا يرى منه إلا شيئاً ضئيلاً يقول إن الإنسان كان من قبل طيراً !!

ويستشهد بعض العلماء بقول الله عز وجل

« وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ» الأنبياء ٣٠

« والله أنبتكم من الأرض نباتاً » نوح ١٧

ومِن ثم قالوا أو كان لهم أن يقولوا إن الإنسان ليس كائنا نسيج وحده، بل هو طالما أنه يشترك فى الأصل المادي الذى خلق منه كل شيء وهو الماء وطالما أن فيه شواهد من العظام والأذن والجنون والفقرات العصعصية والمصارين تدل على أنه كان على صلة خلقية مادية بالمخلوقات الأخرى حيواناً وطيراً ... فإن الإنسان بلا شك يكون قد صعد إلى الحالة الحالية بعد أن مر بكل مراحل وأطوار تسوية الخلق التى مر بها بقية الكائنات.

وإن الذى ثبت لدى العلماء على وجه يكاد يكون قطعيا أن بداية الخلق كان للخلية المفردة التى خلقت على أغلب الظن فى المياه شبه الراكدة على خلجان البحور والبحيرات من تفاعل الماء والظروف الجوية والمواد الموجودة .. مما أدى إلى وجود البروتوبلازم .·. ثم وجود الخلية الحية المفردة.

ثم إن الخلية الحية المفردة ، وطبعا كان مليارات مليارات الخلايا ، كانت تتكاثر بالانقسام، فيكون كل قسم خلية حية مفردة كاملة تماما كالأصل التى انقسمت منه ...

ويقول العلماء الماديون .. إن وجود الخلايا الكثيرة أدى إلى أن تنضم بعضها إلى البعض، ثم يتخصص كل جمع من الخلايا فى عمل واحد !! ثم حدث تعضون لجماعات الخلايا فأصبح كل جماعات من الأعضاء تكون كائنا واحدا ؟! ومن ثم صار غير قابل للانقسام ..

فلما كان ذلك ، فقد وجد الجنس فى هذا الكائن ... ذكراً .. وأنثى ؟!

وصار التكاثر بالتزاوج . ومن هناكان لابد من وجود الموت كنهاية طبيعية لمن فقد القدرة الجنسية وضعف بدنيا ...

من هذا؛ نرى أن العلماء الماديين قد اكتشفوا - فى ظنهم - قصة خلق الإنسان .. وبسهولة تامة .

ولأن الإنسان ، وكل الكائنات، قد وُجد على الأرض التي هى هذا الكوكب الرئيسى فى هذا الكون، وما عداها بُعدا عن الشمس ليست إلا كواكب غازات متجـــمدة من الصقيع ..

وكان علماء الجيولوجيا والطبيعة والفلك والفيزياء وجيولوجيا الحياة .. كثيرون .. كثيرون .. يبحثون بنهم ودأب وصبر كبير لمعرفة كيف وجد الكون أيضا .. وسيظلون ...

يعنى كان هناك وما زال حتى الآن فريقان يبحثان : أحدهما عن الكون كيف ومتى بدأ وجوده وكم عمره وإلى متى يظل قائماً ومتى وكيف ينتهى؛ وثانيهما يبحث عن أصل الإنسان وتطوره وكذلك غيره من الكائنات .. وهل ثمة تطور آخر للإنسان فى حقب جيولوجي قادم !!

ورغم أن المبحثين مختلفان

إلا أن كليهما مرتبط بالآخر

ذلك بأن الإنسان نشأ من الأرض وعلى الأرض درج واستوى، التى هي نواة الكون..

ومن ثم

فقد وجدت ثمة مقارنة علمية ورياضية فى إحصاء وعد سنوات كل منما فى حد ذاته، وفى علاقة كل منهما بالآخر.

وعلى أساس مبتسر من علوم الكون، تسير الأبحاث منذ وقت طويل مضى .. ومازالت ..

ولأن فى قصة خلق الإنسان أعظم عبرة له فى نفسه ومع خالقه تبارك وتعالى .. فلا شك أن معرفتها يكون أمرا .. وإن كان مثيرا ومشوقا؛ فإنه ضرورى ومهم.. حتى يعلم الإنسان كيف كان .. ثم كيف أصبح .. حتى أسجد الله عز وجل له الملائكة وسخر له كل ما فى السماوات والأرض وكرمه بالخلافة فى الأرض وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .. واصطفى منهم المرسلين والنبيين وصفوة خلق الله أجمعين صلى الله عليه وسلم.

ولأن حكاية خلق الكون والإنسان وردتا فى القرآن العظيم على درجة تسلسلية في بعض السور وعلى أساس أحادي فى سور أخر .. وكان كل من هذه الآيات يعطى إشارة إلى كيف الخلق .. أو يعطى تفصيلاً .. فقد وجدنا أحد علماء المعتزلة وهو النظام العروض المتوفى سنة ١١٥٦ م.، يقول إن الإنسان خلق على نسق التطور من حال إلى حال أعلا ...

ثم وجدنا عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦ م . يلقف هذه المقولة : ويقعدها فى علم النشوء والارتقاء في مقدمته الشهيرة .. ثم تناوله أيضا الشاعر الباكستانى محمد إقبال فى كتابه « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » (١) .

وقد ترجمت مقدمة ابن خلدون منذ أمد طويل إلى ٢٨ لغة .. فإذا عرفنا أن تشارلس دارون كان يدرس الأدب وتخرج فى الجامعة حاملا شهادة الآداب؛ ثم حصل على ماجستير فى الأدب !! لعلمنا أن ثمة صلة وثيقة بل هى عندى أكيدة بين كتاب أصل الأنواع الصادر سنة ١٨٥٩ م ، وكتاب أصل الإنسان الصادر سنة ١٨٧١ م اللذين وضعهما دارون فى القرن التاسع عشر وبين نظرية النشوء والارتقاء لابن خلدون فى مقدمته .. التى لابد أن يكون دارون قد قرأها بل درسها .. وأنها صادفت فى نفسه قناعة صارت هوى ملأ عليه نفسه حتى ملأ عليه كل حياته ... فلم ينشغل بغيرها أبدا وصار أعظم هاو يكتب أعظم كتاب فى جيولوجيا الحياة .. التى هي بعيدة كل البعد عن دراسته الأكاديمية.

وإذا كانت نظرية التطور العضوي في دارون التى هي النشوء والارتقاء فى ابن خلدون، قد أثارت الجدل كثيرا ... بحثا عن حقيقة بداية الإنسان .. فإنها بعد كتابى دارون قد أثارت الزوابع والعواصف الفكرية سيما بين العلماء .. علماء الدين من ناحية .. والعلماء الماديين من ناحية أخرى.

ذلك بأن علماء الدين ينكروون كل ما نادى به دارون عن الأصل المشترك بين

(١) من كتاب (القصص القرآنى) للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

والحيوان وبالذات فصيلة القردة العليا ثم إنهم ينكرون فكرة الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى كسببين لتطور الكائنات من أدنى إلى أرقى وأعلا ... وأيضا فى إحداث تغير تدريجى في تشريح الحيوانات ووظائف أعضائها ومن ثم تنشأ أنواع مختلفة عن أصولها أى أن أنواع الكائنات المختلفة تنشأ من بعضها البعض من جراء تدخل الطبيعة ؟!! بالانتقاء للعناصر الأصلح .. أى هو نوع أو طريق من طرق التهجين الطبيعى . وهو ما أسماه دارون بالانتخاب الطبيعى .. أثارت جميعها العواصف الفكرية بين علماء الدين والعلماء الماديين.

وكانت هذه العواصف الفكرية – وإن كان موضوعها بداية النشأة وتطورها – ذات أثر فعال وكبير بين العلماء الذين كانوا من قبل دارون ومن بعده عن أصل الإنسان على وجه خاص .. فمثلا – ولا أعدد النظريات – قال بعض العلماء بنشأة الحياة من الخلية الحية المفردة التى تتكاثر بالانقسام كسالف البيان .. وقال آخرون .. بخلق الحياة من الأرض .. إلا أن كلا من النظريتين لم يكتب لهما ولا لغيرهما النجاح حين أثبت العالم الفرنسى باستير أن الحياة لا تأتى إلا من الحياة.

ولأن فكر دارون كان ذو إطلالة واقعية حيث أنه يجعل زمام نظريته فى الكشف عن الحفريات التى تثبت حلقات التطور .. حلقة بعد أخرى .. ؛ فإن علماء جيولوجيا الحياة والتاريخ الطبيعى دأبوا على البحث واستمرار التنقيب بين الصخور لإثبات صحة نظرية التطور العضوي لقناعتهم الشخصية فيها .. وفعلا فإن البحث أدّى إلى كشف الكثير الذي يؤيد هذا المنهج فكشفوا عن حفريات كثيرة وإن لم يرتبط بعضها ببعض تماما حتى الآن لصعوبة العثور على الحفريات المطلوبة من جهة ولصعوبة العمل من ناحية أخرى وضخامة التكلفة المالية وإن كان العمل مازال مستمرا.

ولم يسكت العلماء المسلمون المحدثون؛ فإنه سرعان ما كتب الأفغانى كتابا اندفع فيه رداً على هؤلاء العلماء الماديين بعد ما أسماهم بالدهريين [١] دلل فيه على عدم

(١) تراث الإنسانية : مجلد ١٠، صفحة ٨٣٨، كتاب "الردعلى الدهريين" للشيخ جمال الدين الأفغانى.

صحة نظرية التطور العضوى بشهادة ختان الذكور منذ آلاف السنين، ومع ذلك فهم يولدون غرلا كما كان يولد أجدادهم منذ آلاف السنين أيضا. وتجرى لهم عمليات الختان حتى الآن، ولو كان ما نادى به دارون صحيحا لولد الذكور مختونين طبقا لنظرية التطور العضوى أو النشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي !!

وكذلك ، فإنه وحتى الآن يكتب علماء المسلمين عن هذا الموضوع بين مؤيد لنظرية التطور كما ورد بكتاب «قصة السماوات والأرض» صفحة ١٠٢، وبين متوقع للعثور على حفريات تربط الإنسان بالقرد فى بداية النشأة كما ورد بكتاب «التطور وأصل الإنسان» وبين قائل بأن الخلق أمر غيبى لا يعلمه إلا الله وحده مستشهدا بعدد من آيات الذكر الحكيم [١].

---

(١) مجلة الأزهر ، الأعداد مارس وأبريل ، ومايو سنة ٩٤، عرض لكتاب «التطور وأصل الإنسان» للدكتور محمد فوزى جاب الله، وما يو سنة ٩٤ تعليق أ. دكتور أحمد فؤاد باشا الأستاذ بعلوم القاهرة، عليه صفحة ١٨٦٥ ، وكتاب «قصة السماوات والأرض» للدكتور جمال الفندى والدكتور محمد يوسف حسن، أساتذة الفلك والطبيعة.

وعندما قامت الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ثم استولى عليها الشيوعيون بعد شهرين؛ فقد خرج عالم روسى يدعى أوبارين سنة ١٩٢٠ بنظرية عن أصل الإنسان ...

ولم يترك بعض المتعالمين الفرصة تمر وتفلت من بين يديه فقام ... وعلى سبيل المثال .. سلامة موسى وأعلن أنه أخذ على نفسه عهدا بمحاربة الغيبيات واقتلاع الأفكار السلفية والتقاليد الموروثة من الشرق العربى بنشر نظرية التطور العضوى حتى تأخذ بينة العلم مكان عقيدة الإيمان . فشرح النظرية واستعمل كثيرا من الأمثلة التى تؤيد فكرة الأصل المشترك للكائنات الحية ووضعها فى تصادم مع الدين وربطها بالتفسير المادي للتاريخ والمادية الجدلية [1] .

وهكذا فقد سارع هذا إلى التوافق مع أوبارين فى إلحاده الذي نادى بأن الحياة هى حالة من أحوال المادة التى نشأت على الأرض من تطور المادة غير العضوية نتيجة لسلسلة من التفاعلات الكيميائية تحت الظروف الطبيعية التى سادت جو الأرض القديم .. وبعد أن هبطت درجة حرارتها إلى الحد الملائم لقيام الحياة؛ وأول هذه الأحوال هى تكوين المواد العضوية البسيطة من المواد غير العضوية مثل الفلزات كالحديد والرصاص والنحاس بعد أن دخلها الكربون والأكسيجين ... ثم تعقيد هذه المواد العضوية لتكوين أشباه البروتينات ثم نشأة التكوينات الغروائية فنشأة البروتوبلازم الحى. أى أن "الحياة" نشأت على الأرض بالتطور البيوكيميائى للمادة ... ومن ثم قال كوماروف - أحد زملاء أوبارين - إن ظهور الحياة كان حلقة فى سلسلة التطور العام للمادة [2] .

---

(١) يقوم الفكر الماركسى على مادية فيورباخ وجدلية هيجل أى على أساس مادى وتناقض المادة. ظنا أن المادة من عنصرين : طاقة ومادة. (والمادة هى ما يقع عليه الحواس أو له وجود موضوعى خارج الذهن) . والتفسير المادى للتاريخ هو تفسير الأحداث التاريخية جميعا على ضوء وأساس الواقعات الاقتصادية ..

(٢) تراث الإنسانية . المجلد ٢ ، العدد الثالث ، صفحة ١٧٣، ١٧٤.

ومن ثم قال الشيوعيون : إن الإنسان مادة ميكانيكية ذاتية .!!

ولكن عندما ينادي عالم باحث بنظرية أو فكرة علمية، فإنه ليطرحها للفكر العالمى، وهو يفعل ذلك بما يمليه عليه حق العلم والبحث فيه بأمانة، فقد وضعت هذه النظرية فى مختبرات العلم وفى عقول العلماء فوجدوا أنها تصطدم بقوانين المصادفة والاحتمال الإحصائى التى تهيمن على كل شىء يحدث فى الكون. حيث ثبت رياضيا أن المدة الزمنية اللازمة لتكوين أحد أجزاء الخلية الحية التى لا ترى إلا بالمناظير المكبرة وهوجزىء البروتين المكون من أربعين ألف ذرة من عناصر الكربون والأيدروجين والأكسيجين والنيتروجين والكبريت هى على الأقل عدد من السنين مكون من العدد عشرة أمامها ٢٤٣ صفرا، أى مدة زمنية لايمكن قراءتها، وهى من ثم أكبر من عمر الكون نفسه مليارات لا تعد ولا تحصى من السنين [١] .

ومن هنا، فقد أعلن ألكسندر أوبارين بنفسه فى مؤتمر دولي عقد فى نيويورك سنة ١٩٥٩ فشل نظريته فكريا وماديا [٢] .

ورغم ذلك، تظل الذيول تذب عن وجهها كآبة الكذب والفشل !! بالاستمرار فى الكذب وكأن شيئا لم يفضح جهلهم؛ وهو ما يذكرنى ويذكر غيري بالمواقف الضحلة والعبيطة لدعاة التنوير ذيول الملحدين..

وأمام اليقين من عدم قهر العوامل الغيبية فى تطوير المخلوقات، وثبوت أن الحياة لا تأتى إلا من الحياة؟

وأمام الحقائق التى كشفت عنها قوانين المصادفة والاحتمال الإحصائى الرياضى، فقد اضطر العلماء الماديون أخيرا إلى إسناد الخلق المادى وتطوره إلى القوى الميتافيزيقية أى القوى الغيبية. وأشهر هؤلاء العلماء هو دونوى العالم المادى المعاصر . ومن ثم أطلق على هؤلاء العلماء اسم الماديون الروحيون!

---

(١) كتاب « الإسلام يتحدى » ، صفحة ٧٤، ٧٥.

(٢) تراث الإنسانية – المجلد الثانى – العدد الثالث ، صفحة ١٧٣، ١٧٤.

ولا يمكن أن يظلم ربك أحدا ، ولهذا فلا نظلم دارون أبداً حين قال : إن سبب التطور العضوى فى الحيوانات والطيور هو حدوث الطفرة الفجائية تلقائية بغير تدخل الإنسان فيها بل ولا علمه مسبقا بها ولا علمه بعد بسببها [١] .

فدارون يقر صراحة وبشجاعة أدبية وأمانة علمية أن سبب التطور العضوى يتم بسبب غيبى. وهو الذى يقول عنه الماديون .. إنه الطبيعة !!

فقارن معي بين الأمانة العلمية لدى هؤلاء العلماء الماديين : وبين التدهور والضلال الفكرى، والجرى ذيلا لغيره ، عند المتعالمين ..؟!

وانظر معى أيضا كيف يبحث الماديون بمنهج متسلسل الخطي ، فإن تعثرت خطاهم أعلنوا .. وإن فشلوا أعلنوا ..! وبين هؤلاء الأخيرين الذين يوافقون على علامات أو دلالات أشارت إليها بعض الحفريات، فإذا هم يأخذون الدلالات براهين أكيدة، ويقيمون بها علما يقينا ..! مع أن الدلالات لا ترقى حتى إلي مجرد القرائن .. فانظر كم بينها وبين الدليل والبرهان اللذين يستنبط منهما وبهما العلم !؟ لتعرف أين مكان المتعالمين .. من العالمين .. ثم من الحق ..

(١) تراث الإنسانية.. المجلد الثانى العدد ١٢ صفحة ٩٨٣، ٩٨٤ ، أصل الأنواع لدارون.

ولابد أن نعرف أسلوب البحث . فكيف يفكر الإنسان الحديث فى كيف يبحث عن أسلافه؟

فى حقيقة الأمر ، فإن الماديين وضعوا لأنفسهم بما فيهم من فطرة تجاوبت مع بداية أى منهج فى البحث .. وهى مقدمات هذا الموضوع .. حتى يفحصوها فيعرفوا ما فيها.

وحتي يتم هذا الفحص المؤدى إلى المعرفة الأولى، فقد اتفقوا على أن تكون حفريات البشر وغيرهم من الكائنات فى مقارنة موضوعية فى ثلاث أمور : هى حجم المخ وأن حجم مخ أكبر أنواع القدرة الحديثة (الغوريلا) لا يزيد عن ٥٠٠ سم٣ فإذا كانت الحفرية حجم مخها أكبر، فإن ذلك يكون دليلا على أن الكائن أعلا من هذه الفصيلة القردية .

كما قالوا أيضا بأنه إذا كانت تعاريج المخ كثيرة، فإن ذلك يدل على أن هذا الكائن كانت لديه القدرة على الكلام .

فإذاوجدت مع الحفرية بعض الأدوات المصنعة أكدت هذه الالات على أن هذا الكائن لواحد من البشر.

وعلى هذا الأسلوب سار البحث عن الحفريات ومازال .. حتى إذا توصلوا إلى العثور على حفرية قد تكون لقرد أو لغيره؛ أو هى ليست لقرد ولكن لغيره. أو هى لبشر ضئيل الحجم جسدا ضئيل حجم المخ، ولكن أكبر من مخ الغوريلا ..

فإذا توصلوا إلى أن هذا الكائن كان يسير معتدل الجزع ورأسه بين منكبيه وحجم مخه وكثرة تعاريجه تعطيه سمة السمو الخلقى من فصيلة القرود، تأكدوا من أنها لبشر.

هذا كله بجانب معرفة عمر الحقب الجيولوجي من معرفتهم لعمر الصخور الرسوبية أو المتحولة التى توجد بها الحفرية. ومن ثم يعلمون تطور وجود الإنسان فى كافة العصور

للكائنات مع الأحقاب والعصور الجيولوجية
فى آنٍ واحد معاً .

وطبيعى أن الإنسان لم يخلق فى الحقب السحيق الأركى .. وكذلك عدم وجود أية كائنات أخرى بسبب عدم ملاءمة حالة الأرض جغرافية وعدم ملاءمة المناخ لوجود الحياة الظاهرة.

ومن هنا

فقد رأى العلماء أن هذا الحقب الأركى . إذا كانت الحياة بمعناها الظاهر المتحرك غير موجودة فيه ،

فإنهم لم يستبعدوا أن تكون الخلية الحية المفردة قد تكّونت على شطآن البحور والبحيرات فى نهايات ذلك الحقب الذى يأخذ من عمر الأرض أربعة أخماسه .

ذلك بأنه ما إن جاء حقب الحياة القديمة فقد ظهرت الكثير من الكائنات فى البحر. ومن ثم يتسلسل البحث فى عصور كل حقب من حقب إلى آخر حتى يصلوا إلى الحقب الحديث.

ولكن قد يكون من المثير أن تكون لدينا الصورة الحقيقية لكيفية وجود الأرض وكيف كانت هى حتى صارت صالحة لأن تقسم صخورها إلى أحقاب جيولوجية مع بيان الحالة الجغرافية لأرضها ومناخها وحالة ما عليها لنعرف جيولوجيا الحياة بصفة عامة ثم بالتالى نستطيع أن نهتدى إلى الحقب والعصر الجيولوجي الذى بدأ فيه وجود الإنسان.

الأرض ... كانت ثم أصبحت

لعلك مثلى لا ترى مناسبة قوية للدخول فى التفصيلات الفرعية لخلق الأرض، ذلك بأنه - تقريبا - قد حدثت فرقعة كبرى لانفجارعظيم فى أول لحظة لإيجاد أو إبراء الأرض أو مجازا لخلق الأرض وحدها أولا .. أقول الأرض أولا ولم يكن شيئا من الكون له وجود بعد . ذلك بأن سنة شطر النوى هو حدوث فرقعة كبرى لانفجارها المهول.

وكانت لحظة خلق الأرض ولمدة طويلة جدا .. عشرة مليارات سنة ، وهى تزيد حتما ...، وضوءا وشعاعاً مهولا ورهيبا معا .. ودُخاناً لا قِبَلَ لبلوغ مداه وكثافته ..

وظلت الأرض اللهب هكذا لا تريم هذه الفترة الزمنية الخيالية حتى بدأت تتضاءل شيئا فشيئا إلى أن انطفأت .. وتركت الأرض كتلة ضخمة متوهجة ثم حمراء قانية متأججة .. وبمرور الوقت وضياع آثار الحرارة الهائلة بالإشعاع .. فقد بدأ لونها يصفو ثم يتغير شيئا فشيئا حتى صارت الأرض كتلة ضخمة لينة .. ومع ذلك كان جوفها يغلى ..

كان قد مضي على الأرض حوالى عشرة مليارات سنة وزيادة على الأرجح ، حين بدأت قشرة الأرض تتجمد ثم تتصلب .. وجوفها يغلى ومازال إلى اليوم حيث مر عليها عشرة مليارات سنة أخرى .. أى أن عمر الأرض حاليا هو عشرين مليار سنة .. والأرجح أنه يزيد على ذلك ، لأن أجهزة القياس لابد أن تكون فى قصور طالما أن صانعها فى قصور ..

وكانت سفينة الفضاء الأمريكية أبوللو فى سنة ١٩٨٦ قد أرسلت أن عمر الأرض من ١٠ - ٢٠ مليار سنة ! وعمر الشمس ١١ مليار سنة !! أى أن الأرض موجودة قبل الشمس وليس كما يقول العلماء الماديون ! ويبنون على ذلك أفكارهم التى ليس لها أساس فى الواقع ولا فى العلم !!

فقد قالوا أن الفرقعة الكبرى للانفجار العظيم قد تولد عنها سديم مهول من نوى

الأيدروجين يدور بسرعة عارمة حول مركزه وظل يتثاقل حول نفسه أو يتكاثف فولدت النجوم التي كانت تدور حول نفسها وحول السديم بقوة الطرد المركزية للسديم .. ثم انفصل عن أحد هذه النجوم عدة شظايا كان منها كواكب المجموعة الشمسية .. فعندهم أن ترتيب وجود الكون هو السديم أولا ثم بعد ذلك النجوم ثم بعد ذلك وجدت الأرض كقطعة انتثرت من أحد هذه النجوم أي أن الأرض آخر شيء وجد في الكون .. ولأنها قطعة من نجم يدور حول مركزه وحول السديم ، فقد دارت الأرض بقوة الطرد المركزية للنجم حول النجم وحول محور لها !!

وأن هذا النجم هو الشمس أو نجم آخر انتهى أجله فالتقطتها الشمس بقوة جذبها إلى مدارها ؟ ! (وهذه نظرية من ضمن عدة نظريات أخر!!)

وقد أخذ كوبرنيكس قياس المسافة بين الأرض والشمس ووضع قوانينه التى جاءت صحيحة وفي ظنه أن الأرض تدور حول مركزها وحول الشمس ومن ثم قال بأن القوانين الفيزيائية التى استنبطها تثبت دوران الأرض وكل أجرام المجموعة الشمسية حول نفسهاوحول الشمس ..

ولكن .. لأن كوبرنيكس قاس المسافة بين الأرض والشمس على أساس أن الأرض جامدة لاحركة لها حتى يستطيع استخلاص القياس للمسافة بدقة ، فإن النتيجة التى ظهرت أمامه تكون على غير أساس صحيح فى واقع ظنه وتكون دليلا عليه وليس له.

ومن هنا فقد استمر العلماء فى التفكر فى موضوع دوران الأرض، فأجريت تجربة اثار جرى الأرض في الأثير مع بيان لسرعة الضوء .. فثبت على وجه القطع واليقين بهذه التجربة المادية أنه ليس للأرض أى أثر على الأثير ولا سرعة الضوء مما يقطع ماديا بأن الأرض جامدة لا حركة لها إطلاقا فى نفسها ولا حول الشمس.

ثم تقدمت المباحث فثبت أن الجرم الغازى لو ضغط عليه بحيث صار حجمه $\frac{\text{واحد}}{\text{مليون}}$ من حجمه الأول لظل غازا أيضا. كما ثبت أن تحويل لتر واحد من الماء إلى ذرات فإنه

يملأ كل وجه الأرض بسمك ٣٠ سم... فانظر لو حولنا كل مادة الأرض وماءها إلى ذرات لكانت كتلتها أكبر من كل كتلة السماوات وما فيها .. مليارات لا تعد ولا تحصى ..!! وهو ما يثبت ماديا فشل فكر الماديين نظرياوماديا فى نظرياتهم جميعا وفي كوبرنيكس الاثنين معا ..

وصدق الله العظيم الذى أخبرنا بدوران الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون . ولم يقل عن الأرض أنها تجرى فى فلك أو فى خط مستقيم «وماكان ربك نسيا» مريم ٦٤.

ورغم أن القرآن العظيم واضح ومفصل وصريح فى بيان مدى عظمة ثقل الأرض ومدى تفاهة السماء وما فيها .. فإن المسلمين مازالوا فى قهر تحت ضغوط ظاهر قوة الفكر المادى المسيطر على العالم بما له وصناعاته وبالتالى بقوته ! .. والله عز وجل يقول «أن القوة لله جميعا» البقرة ١٦٥.

والقرآن العظيم

أكد على خلق الأرض أولا بمثابة أنها الآية الكونية العظمى ومقر الخلافة للبشر من الله تبارك وتعالى .

فأتى سبحانه وتعالى بما يؤكد هذا الترتيب فى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم» البقرة ٢٩ .

فأخبر سبحانه وتعالى عن وقوع حدثين وكانت الأرض موجودة فعلا قبل حدوثهما؛ الحدث الأول هو خلق كل ما في الأرض ؛ والحدث الثانى هو الاستواء إلى السماء وتسويتها سبع سماوات. أى أن الأرض خلقت أولا ثم بعد ذلك خلق كل ما فيها وأخيرا خلقت السماوات سبعا. ومن باب أولى تكون النجوم كلها خلقت بعد ذلك كله لتزين السماء الدنيا ، كما ورد ذلك مفصلا فى سورة فصلت فى الآيات من ٩ إلى ١٢.

وهذا الترتيب؛ كما ترى ؛ عكس ترتيب العلماء الماديين تماما ويؤكده ما أسفرت عنه تجربة الأثير وسرعة الضوء سالفة البيان، كما يتوافق الترتيب القرآنى مع البيان المادى للمادة الموجودة فى الأرض وأنها قدر المادة المكونة للسماوات والنجوم كلها مليارات لا تعد ولا تحصى .. كما أنها - أفكار الماديين - تتعارض أيضا مع ما أرسلت به مركبة الفضاء أبوللو سنة ١٩٨٦ من أن الأرض أكبر عمرا تقريبا الضعف ؛ بالنسبة للشمس . الذى يؤكد - كما سنبين بعد - أن الشمس أكبرعمرا من كل النجوم الموجودة فى السماء الدنيا ...

ومن ناحية أخرى ؛ فإن المقهورين للماديين ، يضحكون عندما نقول إن الأرض مركز الكون. وهؤلاء سوف يلقون غياً ويوم يسألون عن العلم الذى لديهم فلن يستطيعوا نطقا ، ذلك بأنهم ليس لديهم أية مقولة .. أقول أية مقولة .. تصلح دليلا على نفى ذلك .. ويسمعون كلام الله فيعرضون !! ويسمعون كلام البشر فيقبلون !!

ويثبت ربنا عز وجل أن الأرض مركز الكون فى قوله تعالى :

«الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام» السجدة ٤

وطبقا لقواعد النحو فإن كلمة «بين» ظرف مكان يبينها المضاف إليه وهو الضمير المتصل «هما» وهو عائد على السماوات والأرض. أى أن هناك مكانا يقع فوق الأرض وتحت السماء وأن هذا المكان بينه ربنا عز وجل فى قوله تعالى «وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» البقرة ١٦٤ . إذاً الأرض ليست في مجموعة نجمية ولا هى في السماء. وطالما أن المسافة بين سطح الأرض والسماء واحدة من كل جزء من محيط الأرض، إذاً فالأرض فى المركز تماما للسماوات السبع.

ويقول العزيز الحكيم :

«ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون»

السجدة ٢٢.

لذلك

فإن الله سبحانه أخبر أن السماء سقفٌ للأرض فى قوله تعالى :

«وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون» الأنبياء ٣٢ وهذا التفسير هو الذى قال به كل العلماء الفطاحل مشاعل الحق الذين لم يكونوا فى قهر الماديين ؛ منذ الإمام الطبرى حتى الإمام ابن كثير مروراً بكل ما بينهما .. الفخر الرازى والزمخشرى والجلالين والقرطبي وغيرهم .. هو التفسير الحق الذى يتفق مع كلام الحق تبارك وتعالى وقواعد النحو والقواعد الأصولية اللغوية والتشريعية .. ومن ثم فإن غيره يكون غير ذى قيمة يتلفع بالخطأ مع الخطيئة فى آن واحد معاً ..

أما عن قوانين «كوبرنكوس» التى تقول بأن الشمس أكبر جاذبية من الأرض بقدر ٢٨ مرة ..

فقد أثبتت التجارب الفضائية المادية أن هذه المقولة مجرد عبث فكرى ليس له مع الحقيقة وجود ، ذلك بأن تجربة سفينة الفضاء فسخود -٢ سنة ١٩٦٥ أثبتت أنه لا توجد جاذبية للأرض على ارتفاع ٤٣٠ كم من سطحها وأنه فى هذا الارتفاع كان كل شيء داخل السفينة وخارج السفينة فى حالة انعدام وزن أى لا توجد ثمة جاذبية .. لا للأرض ولا للقمر ولا للشمس .. فلو كان للشمس جاذبية تمسك الأرض كما قال كوبرنيكوس لوجدت عجلة سقوط حر إلى الشمس ولجذبت الشمس مركبة الفضاء فسخود-٢ إليها وهو الأمر الذى لم يحدث .. لأن الشمس فقاعة غازية خلقها الخالق العظيم لتسبح فى فلكها حول الأرض مرة كل ٢٤ ساعة مسخرة بأمره لترسل الضوء والحرارة - بقدر محدد - الملكفة تسخيرا بإرسالهما للأرض [1] ..

كانت الأرض نارا إذا وبذلك بدأ الوجود الكونى .. نواة الكون .. مركز الكون أولا

(١) كتابنا «رحلة فى أعماق الكون» وهو موثق بالمراجع العلمية المحلية والعالمية .

قبل أى شىء آخر فى الكون، وأى شىء إنماجاء لخدمة البشر خلفاء الله عز وجل فى مركز الكون .. هذه الأرض.

وعندماتصلبت القشرة الأرضية .. ثم أصبحت باردة تماما وبردت المياه فى البحار ... فى ذلك الليل البهيم الطويل مليارات السنين .. بدأ الحقب الأول الجيولوجي الأركي السحيق والسماء مازالت دخانا كثيفا مهولا ملاصقا للأرض مطبقا عليها ولا شمس ولا قمر . ولا نجوم .

وظل هذا الحقب الأركى والأرض فيه لاتصلح لظهور أي نوع من الحياة .. إلا فى أواخره أى بعد حوالى ١٨ مليار سنة وزيادة .. وكانت الشمس قد خلقت وترسل أشعتها فى ضوئها إلى الأرض مخترقا دخان السماء حيث يقول العلماء الماديون إن البروتوبلازم وربما الخلية الحية المفردة ظهرت فى أواخر هذا الحقب على شواطئ البحار والبحيرات من تفاعل الماء الراكد والجو والمواد الكيماوية ..

ثم تتوالى الأحقاب الجيولوجية .. حقب الحياة القديمة ثم حقب الحياة الوسطى .. ثم حقب الحياة الحديث .. وكانت السماء ما زالت دخانا يلامس الأرض ويحيط بها ..

وتتوالى مع هذه الأحقاب الجيولوجية الظواهر الكونية من حول الأرض ، فالشمس واقفة أمام الأرض لا حركة لها ، واختفاؤها فى الدخان واختفاء ضوئها إلا القليل وتشتت حرارتها إلا القليل . ثم إبعادها عن مكانها ملايين السنين فتمضى ملايين السنين والأرض مجللة ومكسوة جميعها بالجليد .. ثم تعود وتقترب شيئا فشيئا حتى يذوب الجليد ثم تقترب أكثر فتجف البحار وتضيع المراعى ويسود الأرض الصحراء .. إلى غيرها من التطورات الكثيرة الجغرافية والجيولوجية مع كل قرب وبعد للشمس عصر جيولوجي وأحياء مختلفة لا فقارية وفقارية ... الخ.

ولعله من المفيد أن نذكر أن اليابسة كانت في حقب الحياة القديمة عبارة عن قارة واحدة شاسعة .. ثم إن الله عز وجل مدَّ هذه الأرض فى قوله تعالى : «وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ..» الرعد ٣ في حقب الحياة الوسطى فزادت مساحة اليابسة فحدث فيها أمارات للقارات التى كانت جميعا فى ناحية واحدة من الأرض الذى

يسمى حاليا بالعالم القديم (مكان آسيا وأوروبا وأفريقيا) ثم مُدّت هذه اليابسة مرة ثانية فى حقب الحياة الحديث حيث تشكلت القارات وأخذت شكلها الحالى فى العصر الثالث الميوسين .. فأصبح نصفى الأرض فيها يابسة .

ولأن مدّ الأرض جاء معه جمْعاً إيجاد الرواسى أى الجبال بمثابة أن حرف الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب ولا معية ، فإن توسع البعد بين القارات حتى ذهبت قارتان إلى النصف الثانى من الكرة الأرضية وصار بينهما وبين بقية القارات محيطان الهادى والأطلسى ، وظهر البحر المتوسط بين أفريقيا وأوروبا والبحر الأحمر بين أفريقيا شمالاً غربا واسيا شرقا .. الخ. فإن ذلك قد حدث معه بالقطع واليقين الزلازل الجبارة التى بها انخفضت مساحات شاسعة من اليابسة وارتفعت صخورٌ كثيرة من أعماق القشرة الأرضية تكونت بها سلاسل الجبال الهيمالايا والأنديز والألب وغيرها ونصبت فى أماكنها بالإرادة الإلهية «وإلى الجبال كيف نصبت» الغاشية .

ولما كان هطول الأمطار ونزولها على تلك الجبال لابد أن تنزل به الماء إلى أسفل هذه الجبال وتسير مندفعة فى السهول فقد تكونت الأنهار والوديان .. ونبتت الزروع ووجدت الضروع .. والزراعة والمجتمعات .. [1] .

---

(١) فى هذه الفقرة «الأرض .. كانت ثم أصبحت» وفي فقرة قادمة « الأرض والسماء مسرح الحكاية » فقد جاءت الايات القرآنية الكريمة فى عدة سور، أهمها سورة البقرة الاية ٢٩، وسورة فصلت الايات ٩ إلى ١٢ وقد ورد بهما ترتيب خلق الأرض وما فيها والسماء سبعا ترتيبا إجماليا، ثم جاء التفصيل فى سورة الرعد ٢، ٣ وفي سورة النازعات الآيات ٢٧ إلى ٣٢ وسورة الرحمن الايات من ٥ إلي ١٠ بترتيب يبين ويوضح واقعات مدّ الأرض ورفع السماء والاستواء على العرش وجعل الرواسى وخلق الأنهار وتسخير الشمس والقمر وإيجاد الليل والنهار والمراعى والأغنام إلخ..
ولما كان ذلك فإن معرفة ترتيب هذه الواقعات الفلكية والجيولوجية والجغرافية كان يستلزم أمر معرفته إلى إعمال حروف عطف النسق الواو والفاء وثم والوقف لبعض الايات .. ومعرفة الأزمنة الشاسعة التى استغرقتها حرف «ثم» وكذلك إعمال قواعد النحو والقواعد الأصولية اللغوية والتشريعية التى تقضى بضرورة جمع الآيات لإزالة التعارض والترجيح بينها للخروج بالترتيب الصحيح. ولقد جاءت الواقعات الجيولوجية والجغرافية ردءاً تصدق هذه القواعد جميعا وما استخلص بها فى واقع الأرض والسماء الأمر الذى ظهر به إعجاز القرآن العظيم فى مجال استخلاص هذه العلوم الجغرافية والجيولوجية كأصدق ما تكون بلا ظنون ولا ريب ..

ولأن حكاية البشر هى موضوع هذا الكتاب

ولأن الكثير قد أثر فى البشر

فإن صحيح القصة أن نلم بهما معا . فى صورة كاملة، وإن كانت هذه الصورة التركيز والتحديد والتفصيل والتأصيل فيها للبشر .. خلفاء الله عز وجل فى الأرض دونما إهمال لمسرح هذه الحكاية .. السماء والأرض وما بينهما ..

وإذاكنت سأروى الكثير من أفكار الماديين، فذلك من باب العلم بأفكارهم العلمية التى لايمكن تجاهلها من ناحية وما وصلوا إليه من كشوف فى العلم الظاهر .. ومن ناحية الأدلة المادية المستخلصة من تجاربهم ومكتشفاتهم للحفريات والصخور ، ومن ناحية ثالثة أنهم ساهموا كثيرا وكثيرا جدا فى مجال البحث عن الحفريات وهو ما لا يمكن الاستغناء عنه فى رواية حكاية البشر .. طالما أنها واقعات مادية حقيقية .

أما عمدة الحكاية وأساسها فإنها بعونه تعالى مؤصلة بالدليل الحقيقي الصحيح من القرآن الريم والسنة النبوية المطهرة وما يشهد بصدقه واقع الكون فى مشاهد السماء والأرض والصخور والحفريات والبشر.

ذلك بأن الحكاية أو القصة بإطلاق طبقا للمنهج القرانى أن تكون قد وقعت فصولها فعلا وأن تروى بأسلوب مهذب وأن تخرج منها بالعبرة التى هى الهدف النهائى والغرض الأساسى من سرد الحكاية .

ومن ثم

فإذا أوردنا شيئا عن النظريات المادية وغيرها؛ فإنما لبيان الحق من الباطل كما علمنارينا سبحانه وتعالى فى قرآنه العظيم.

وإذاوصفنا شيئا بالكذب ، فإنه وصف قرآنى استعمله الله عز وجل فى وصف أقوال الكفرة يوم القيامة حيث يقول تبارك وتعالى :

«ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين» النحل ٣٩ .

مرة ثانية .. الإنسان يبحث عن الإنسان

سردت فيما تقدم العلامات الثلاثة التى يضعها الباحثون عن حفريات الإنسان وهى حجم المخ وكثرة تعاريجه والأدوات الموجودة بجانبه كدليل على حفرية الإنسان من غيره .

ولم يضع أحدهم أى علامة أخرى .. لفرط قناعتهم بنظرية التطور العضوي ..

فالسلسلة التطورية التى وجد تصديقا لها الكثير من الحفريات شواهد مادية ولا شك على صحتها جعلت جميع العلماء الماديين يصدقون بها يقينا ويفرحون فرحا شديدا عندما يجدون حفرية تصل مابين طورين فى حفريتين مثل حفرية جد الطيور التى أثبتت تطور الحيوان إلى طير .. ومن ثم فإن هؤلاء العلماء الماديين بقدرفرحتهم بثبوت صحة نظرية التطور العضوى فإنهم يتخذون من هذا أداة قاتلة للأديان.

وإن كان العلماء المسلمون يسارعون إلي تطويع معاني القرآن الكريم لإيجاد التوافق بين ما عثر عليه من حفريات وما دلت عليه من نتائج وبين المعانى التى يضعونها بكل حسن الظن منهم لنصرة الله عز وجل .

هذا ؛ ومع أنه

ومن ناحية أخرى فإن الماديين يسارعون إلى أن يتخذوا من الإلحاد العلمى الوسيلة لإثبات خرافة الألوهية .. وبالتالى فساد المقولة بالدين ..

ومن هنا سارع ماركس وأسس فكرة الشيوعية على أن الدين خرافة وأن البرجوازية اتخذته لتخدير الشعوب عن المطالبة بحقوقها؛ وأن الإنسان ليس إلا كيان مادى كيميائي ذاتى .. ثم نادى بأن الشيوعية تقوم على أساس المادية الجدلية .. ومن ثم وضع فكرة التفسير المادي للتاريخ كسالف الإشارة ..

ومع أنه قد ثبت أن المادة ليست جدلية يعنى ليست متناقضة وإنما متزاوجة ، كما ثبت أن التاريخ ليس نتيجة توافقية للواقعات الاقتصادية إلا فيماندر ، كماثبت علميا أن

الإنسان ليس مادة كيميائية .. وإنما هو نفس وروح وسر داخل حلة ترابية .. فإننا مازلنا نجد من يدعى تنوير الشعوب بفرط ما فيه من تفاعل كيميائى ذاتى !! حفاظا منه فى حقيقة الأمر على الوضع الاجتماعى الذى ابتزه فى ساعة من غفلة .

فنرى بذلك أن ثمة عوامل غير علمية تقف عراقيلَ أمام البحث الصحيح بل وتدخل الخلط فى وجدان الناس ومن ثم يتغشى هذا نور العقل .. فلا يرى صحيح البداية فى المقدمات الحقيقية للبحث .

فيقول رب العالمين

« إنى خالق بشرا من طين .. » ص ١٧.

وهكذا جاءت جميع الآيات القرآنية فى شأن النشأة الأولى للإنسان عن بداية خلق الإنسان بكلمة البشر ثم استعمال ذات الكلمة فى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى نطاق بيانه عن وجه الشبه بينه وبين الناس جميعا ..

وكلمة «بشر» مفرد وجمع وتعنى تسمية الإنسان بأهم وأخطر ميزة فيه؛ حتى إنها لتفرق بينه وبين جميع الكائنات مفارقة تامة وكاملة بل إنها أيضا لتقيم العنوان الكامل الواضح على الإنسان من دون الكائنات جميعا.

فكلمة «البشر» هى السمة الأصيلة فى الإنسان من دون الكائنات جميعا ..

فكلمة «البشر» هى السمة الأصيلة فى الإنسان والتى تجعله خلقا اخر فتبارك الله أحسن الخالقين . فكان الإنسان ببشريته أحسن ما خلق الله رب العالمين .. من وجه واحد من وجوه معني كلمة « أحسن».

ومن ثم فهى التى تقطع أي مقولة لوضع الإنسان كواحد فى قافلة النشوء والارتقاء والتطور العضوى منذ الخلية الحية المفردة .. وتفصل بين الإنسان وبين باقى الكائنات ، فصلا تاما وجذريا سواء من ناحية الأصل المشترك للكائنات جميعا بما فيهم فصيلة القردة العليا ومن قبلهم الزواحف فالثدييات !!

ذلك بأن «البشر» يعنى المخلوق الذى له هذه البشرة منذ بداية أول لحظة لوجوده !

فى حين أن كل الحيوانات والطيور إنما يحميها جلود سميكة أو دروع عظمية أو صدفية أو فرو أو شعركثيف وجلد سميك وريش كثير، وأنها وصلت إلى هذه بسنة التطور وليس منذ البداية فى وجودها!!

فإذا كان مسلك البحث وأسسه فى الحفريات قد غفل عن هذا فأدّى إلي الخلط بين بعض الحفريات وبعض المفاهيم مما كان سببا فى الإزعاج الفكرى الذى أصابه كثير من الإحباط فى مقولة أن الإنسان والقردة العليا قد نبتا من أصل مشترك واحد، وإن كان كل منهما فرع مستقل بذاته .. ومن ثم تأيد لهؤلاء سبق المسيرة كلها بداية من الخلية الحية المفردة مرورا باللافقاريات (التى ليس لها عمود فقرى) فالفقاريات فالزواحف فالطيور ثم الثدييات. وكانت جميعا من ذوات الدم البارد أى الذى يتكيف بدرجة الحرارة الموجود بها ارتفاعا وانخفاضا إلى أن صارت من ذوات الدم الحار إن زادت حرارتها أو نقصت كشفت عن طارئ ألمّ بها . وجعلت الإنسان أحد أنواع هذه الثدييات (أى التى ترضع صغارها من ثدييها) وأنه تطور حتى صار من الرئيسيات أى التى اعتلت الأشجار فصارت في موقع رئيسى من بقية الكائنات ..

ومن ثمّ ؛ فقد اندرج الإنسان عند هؤلاء العلماء الماديين فى هذه الكائنات يُعرف من بينها بكبر حجم المخ عن ٥٠٠ سم٣ وتكثر فيه تعاريجه ويوجد مع حفرياته أدوات مصنعة. فهو بكل تأكيد واحد من هذه الكائنات تطور معها منذ البداية الخلية الحية المفردة إلي النهاية أى إلى إنسان العصر الحالى نسلا من نسل طورا بعد طور بغير انقطاع.

وأجمع على ذلك جميع العلماء .. ولم نعرف مخالفا منهم لهم .

ولكن ؛ وطبقا للواقع المادى

فإن ذلك القول السادر أبدا ؛ يتعارض ويتناقض تناقضا تاما مع حقيقة وجود

«البشرة» فى الإنسان منذ بداية خلقه حتى الآن علامة مادية عليه وله تجعله شاذا بلا مناسبة إطلاقا من التطور سالف البيان فى جميع الكائنات ... ولا يتصل بها لا من قريب ولا من بعيد ..

ونعلم جميعا أن الواقع المادي وقعه صارم فى إثبات وجوده وحقيقته ونفى غيره عنه نفيا قاطعا ..

الأصل المشترك

لا أريد أن ألم بكافة التفاصيل الفرعية للتطور أسبابه وشواهده لعدم جدواها فى بيان أوحياة حقيقة البشر.

ولكننا سنلم بالأساسيات من باب المعرفة بالشىء، ولنقف على مقولات العلماء فى شأن قناعتهم سالفة البيان .

ذلك بأن تجاهل الرأي فيه مسغبة فكرية وهضم لرؤية الآخرين سيما وأنهم جماعة كبيرة وكاملة أثمرت فى كل ميادين البحث ..

كما وأن كثيرا من أسباب التطور العضوى وأطواره يُعطى كثيراً من المعرفة الحقة فى موضوع البشر تارة ومواضيع الحقب الجيولوجية تارة أخرى. وموضوع صحيح الحياة التى ألمت بالبشر فى البداية ثم عادت فشملتهم مرة أخرى للابتلاء ثم قضت عليهم نهائيا مرة ثالثة .. .

وإذا كان هذا الإيجاز شديدا إلا أنه ليس فيه تعسفٌ ، فقد سبق وألمحنا إلي أن جميع العلماء الباحثين فى جيولوجيا الحياة قد توافقوا على أن الأصل المشترك لجميع الكائنات الحية .. نبات وحيوان وإنسان هو الماء فالخلية الحية المفردة .

والخلية تكوين هائل من النواحى الخلقية والبيولوجية والفسيولوجية وإن كانت لاترى إلا بالميكروسكوب المكبرة .. فهى تضم عددا هائلا من الذرات وتتحرك فتندفع بجسمها مبتعدة عن مواطن الخطر، ومع ذلك فهى لا تستطيع الارتقاء تطورا إلى حالة أعلا ..

والخلية بذاتها مصنع كيميائى صغير ولكنه موفور النشاط، وتستوعب غذاءها من الماء الذى حولها ولها قوة الحركة والهضم والنمو.

وإذاكان هذا في المياه، فقد وجدت على اليابسة خلايا مجهرية وبعض أنواع البكتريا التى تطورت للقيام بعملية التمثيل الضوئى ثم تطورت بالتكاثر والسكن بالقرب من المياه مع البقاء في ضوء الشمس فى هيئة تجمعات فبدأ ظهور النباتات الثابتة أسلاف الأعشاب الشاطئية الحالية ..

بداية التطور وتسلسل حلقاته

نحن الآن أمام كائنات ذكرية وأنثوية تتكاثر بالتزاوج وتعرف الموت بسبب الحوادث الجوية أو الأرضية أو المرض أو الشيخوخة ..

ولما كان العلماء الماديون يظنون أن الخلية الحية المفردة بدأ ظهورها فى أواخر الحقب الأركى السحيق بمثابة أنه فى بداية حقب الحياة القديمة الذى تبعه مباشرة وفى العصور الجيولوجية الثلاثة الأولى منه قد ظهرت اللافقاريات بكثرة مهولة .. ثم ظهر فى العصرين الرابع والخامس منه الأسماك .. وفى آخر عصر من الحقب القديم الذى استمر ١٨٥ مليون سنة (على حساب أن عمر الأرض ٣.٥ - ٤ مليار سنة كما كان يقال) ظهرت البرمائيات أسلاف الضفادع والسلامندر كما وجدت حفريات لبعض العقارب ..

أما عن النباتات فقد وجدت فى أواخر الحقب القديم الغابات ضخام الأشجار والخضرة الدائمة والزهور الملونة مع السيول المائية الشديدة .. كما ظهرت الحشرات الهائلة الحجم.

وكذلك ظهرت الزواحف الفقارية ذات الدم البارد وتعتمد فى التنفس على رئتين .

وكان نتيجة زوال العصر الرطب إلى عصر الجفاف وزوال البحار والبحيرات واتساع المناطق الصحراوية أن تهيأت الكائنات المائية على مر ملايين السنين وكنتيجة لما أحدثته عمليات المد والجذر من تهيأة للكائنات المائية على التمكن من الحياة على اليابسة بأن تكون لها رئات بدلا من الخياشيم حتى تستطيع أن تعيش بصفة دائمة على اليابسة حتى إذا ما تم جفاف البحور والبحيرات كانت قد صارت حيوانات برية .. وكان هذا هو أخطر وأهم أسباب التطور العضوي ...

فكان تغير المناخ والمد والجذر هما أهم وأخطر أسباب التطور العضوى فى الكائنات حيث نقلوا الحياة من الماء حيث التنفس بالخياشيم؟ إلى الأرض حيث التنفس بالرئة. ومن ثم بداية ظهور الحيوانات على اليابسة وكان أهمها الضفادع الهائلة الحجم..

المناخ وجيولوجيا الحياة

فى نهاية حقب الحياة القديمة

جاء عصر جليدى استمر ملايين السنين !! فقضى على دولة الضفادع الكبرى وعلى كثير من الكائنات التى كانت موجودة ثم أصبحت وليس لها وجود ..

كان ليل طويل أو كأنه كذلك .

ثم جاء حقب الحياة الوسطى

وبدأ بزوال الجليد واعتدال المناخ ودام اعتداله ١٣٥ مليون سنة !! ومن ثم فقد ظهرت الزواحف الكبرى مثل الديناصور فى البر والحيتان والأسماك فى البحر ..

وفى عصره الثانى ظهرت حيوانات ضخمة مثل الطاغية الجبار والتنين الطائر وهو تمساح له أجنحة مثل البراشوت!

ثم كان كشف مهم جدا، فقد وجدت حفرية لديناصور صغير قد غطى الريش جسده وذيله، وأطلق عليه العلماء اسم «جد الطيور» ذلك بأنه من أهم الحفريات التى تثبت التطور العضوى .. فهو بحق يعتبر حلقة الوصل بين الزواحف والطيور.

ثم جاء العصر الأخير؛ وفيه ظهرت الطيور ذات الريش الكثيف التى اتخذت الأشجار مأوى لها خوفا من الحيوانات المفترسة ومن البرد على سواء حيث اشتد البرد فى نهاية ذلك العصر لملايين السنين ..

فكان البرد الشديد والخوف من الحيوانات المفترسة سببا فى اعتلاء الطيور عالى الشجر واضطرارها إلي التنقل بينها مما أدى إلي تطورها فزاد ريشها كثافة ووجدت لها أجنحة ..

ومع ظهور الطيور، فقد ظهر الدم الحار الذى كان من أكبر عوامل التطور؛ ذلك بأن الريش يعمل على تدفئة الجسم، ومن ثم كان الريش سببا فى المحافظة على ثبات درجة

حرارة الدم وبالتالى الجسم ومن ثم صارت من ذوات الدم الحار، وهونفس ما حدث مع الحيوانات الفقارية التى ظهر لها شعر أو فراء للتدفئة وحفظ درجة حرارة جسمها فصارت أجدادا للثدييات !!

ومعنى أن الدم الحار عامل مهم جدا من عوامل التطور أنه يجعل صاحبه دائم البحث والتفكير والعمل على ما يحفظ عليه دفء جسده؛ ليس فقط بما عليه من ريش أو فرو أو جلد سميك؛ وإنما بالبحث عن الطعام والمأوى؛ وبالتالى معرفة التجمع فى الأسرة أولا والارتباط بها والانتماء إليها والتعاون فيها، ومن ثم حمايتها والمسئولية عنها .. ومن هنا فقد ألقت فى نفسه معانى كثيرة ظهرت فيما بعد - على حد قول العلماء الماديين - فى التجمعات الخاصة بالإنسان الذى هو عندهم حلقة أخيرة من حلقات التطور العضوى لهذه الثدييات !!

وكما اتخذ العلماء الماديون من حفرية «جد الطيور» حلقة اتصال بين الزواحف (الحيوانات) والطير، فقد اتخذوا من حيوان «الأخدنة» التى تعيش فى استراليا حية منذ حقب الحياة الوسطي حتى اليوم؛ حلقة اتصال بين الزواحف والثدييات .. حيث أن هذا الحيوان مازالت تضع أنثاه البيض ومع ذلك فهى ترضع صغارها كالثدييات من اللبن الذى يسيل على بطنها وليس لها حلمات .. كما أن جسمها مكسو بالشعر كالثدييات العليا إلا أنها ليست من ذوات الدم الحار تماما ..؛ لأنه أعلا شيئا من البيئة المحيطة بها..

وامتدادا لكلام واستنتاجات العلماء الماديين

فإن أجداد أو أسلاف الثدييات كانت حيوانات دقيقة ليلية من الزواحف البسيطة التركيب التي اتخذت لنفسها - هربا من الصقيع - في أواخر حقب الحياة الوسطى؛ أماكن بعيدة فوق قمم الجبال والأشجار العالية !! ملاذا وملجأ فتكون لها الفراء ودقت حواسها ورقت مشاعرها لتمكنها من الاحتراز والتربص لكشف اقتراب الأعداء منها ثم البحث في الظلام عن الغذاء، وفي ذات الوقت تربت فيها غريزة الأمومة ورعاية الصغار.

ومن هذه الظروف ونتيجة لها ارتفعت مدارك هذه الحيوانات بتطور المخ فيها حتى تكون على لياقة للتغلب على الظروف والمرونة في الجرى للنجاة ..

وما أن جاء حقب الحياة الحديث ؛ حتى تهيأت الأرض لأحداث جيولوجية منذ ظهرت سلاسل جبال الهيمالايا والأنديز والألب في العصر الثالث الميوسين، واستمر الجو باردا فاحتاج الأمر إلى توافر ثقل الفراء وزيادة كثافة الشعر للاحتفاظ بالدم الحار، وما ترتب على ذلك من تطورات عضوية خارجية وداخلية.

وإذا كان الحقب الأركى السحيق قد استمر ٢ مليار سنة (على حساب أن عمر الأرض ٣.٥ مليارسنة، وهذا قول تبين خطؤه كسالف البيان). وحقب الحياة القديم استمر ٣٠٠ مليون سنة، وحقب الحياة الوسطي استمر ١٣٥ مليون سنة، فإن حقب الحياة الحديث قد استمرحتى الآن حوالى ٧٥ مليون سنة ؛ كل هذا على التقدير القديم ذلك بأن عمر الأرض كما هو ظاهرحاليا أنه من ١٠ إلى ٢٠ مليار سنة .. والحقيقة أنه أكبر من هذا لأن أدوات القياس مازالت قاصرة عن الكشف الصحيح عن عمر الأرض.

فإنه، مع ذلك ، ورغم مرور هذه الآلاف من ملايين السنين ، فإن حقب الحياة الحديث قد جاء وكانت الأحوال المناخية غير مستقرة كما كانت شديدة البرودة .. والغريب

- أقول والغريب - أن ذلك كان يستمر ملايين السنين، ثم نرى المناخ يعتدل ثم تزداد الحرارة وتشتد حتي تجف البحار والبحيرات وتنتشر الصحارى وتزول الخضرة وتجف الأشجار وتموت ..

وقد ترى معى

أن ذلك لم يكن طبيعة .. وإنماكان سبيلا إلى تكوين الطبيعة وهو ما يقول بأن النظام الشمسى لم يكن قد بدأ واستقر بعد، وأيضا القمر الملازم قبالتها ...

والطبيعة معناها لغةً : السجية التى جبل عليها الإنسان.

والسجية معناها لغة : الخلق والطبيعة. وقوله تعالى «والليل إذا سجى» أى دام وسكن

والخلق لغة معناها السجية ....

إذاً، فالطبيعة هي الخُلُق التى جبل عليها الإنسان ودام عليها وسكن إليها فصارت سلوكا تلقائيا طبع عليها فيأتيها دونما تفكير .. أى هى النظام الذي ألمّ بالإنسان فصار الإنسان مفطورا عليه فصار هو طبعه ..

وهكذا كان نظام الكون الذى فرضه الخالق العظيم فصار قائما عليه ومن ثم صار طبيعة للكون، فيطلق عليه الطبيعة - لغة كمصدر . فصار الكون كونا ويطلق على نظامه وشكله كلمة الطبيعة استعارة مكنية حسبما أرى وليست كناية بحتة. لحذف المشبه به فى كل منهما ودلّ عليه بما هو من خواصه ولوازمه وهو النظام الدائم المستقر.

ونظام الكون حتى بدايات وسط الحقب الحديث لم يكن قد اكتمل ولا هو بالتالى استقر ودام وسكن .. حسبما بينا آنفا فى فقرة (الأرض كانت ثم أصبحت) .

الرئيسيات

ويستمر العلماء الماديون فيقولون :

ها نحن على وشك ظهور الإنسان ..

فقد تطورت الثدييات مع الأحوال المناخية والجوية وظهور أسلاف الذئاب والكلاب المفترسة .. فقد هربت أسلاف الفيل وكان ارتفاعه ٩٠ سم والحصان وكان ارتفاعه ٤٠ سم إلى البحر فكان منهم عرائس البحر وأفراس النهر والقياطس، وتوارى بعضهم فى الكهوف فكان منهم الخفافيش، واعتلى بعضهم الأشجار فكانوا فى موقع يجعلهم - كما يقول العلماء - يشرف على باقى الكائنات أى فى موقع رئيسى فسموا بالرئيسيات ... وكان منهم الإنسان.

وتم ذلك فى وقت وجيز لا يزيد عن ٤٠ مليون سنة منذ بداية حقب الحياة الحديث أى خلال عصرين الأول الأيوسين والثانى الأليجوسين ... أى قبل ظهور سلاسل الجبال سالفة الذكر.

ولم يكن الإنسان الذى من الرئيسيات واعتلى الأشجار فى شكله وحجمه الذى يدل عليه .. وإنما كان حيوانا ثدييا غير معلوم الهوية على وجه قطعى؛ حيث كان الخلط بينه وبين القردة لايفرق بينهما طبقا للمعايير الثلاثة التى سبق الإشارة إليها - فلم يكن ثمة فاصل عند العلماء - بين الإنسان وبين جد فصيلة القردة .. أو كان هو جد كلا من فصيلة البشريات والقردة ..

وقبل ظهور سلاسل الجبال فى العصر الثالث الميوسين من حقب الحياة الحديث؛ وجدت حفرية أسماها العلماء قرد الفيوم . دلت عظامها والأحجار التي كانت عليها أنها من العصر الثانى الأليجوسين من حقب الحياة الحديث.

وكانت هذه الحفرية عبارة عن صدغ به أسنان .. وغير واضح طبقا لشرائط العلماء

إن كانت لإنسان أو كانت لقرد ... ومن هنا جاء الخلط ومن ثم عدم القطع .... وإن كانت الأسنان منتظمة.

وبعد ظهور الجبال فى العصر الثالث الميوسين ، وعلى مشارف العصر الرابع البيلوسين ، وجدت حفرية تنتمى لذلك العصر لكائن يمشي على قدمين اثنين ورأسه بين منكبيه وجذعه معتدلٌ وفى حجم الاسكيمو وحجم مخه ٦٠٠ سم٣ .. ولكن ليس معه أدوات الأمر الذى جعل من هذا التخلف للشرط الثالث أن يُطلق العلماء عليه كلمة أو اسم (قرد الجنوب) ؛ رغم أن حجم مخه أكبر من حجم أكثر القردة تطورا حتى الآن وهو لا يزيد عن ٥٠٠سم٣ .

ولهذه الأسباب فقد قالوا إن هذا القرد !!! الذى وجد فى جنوب أفريقيا هو أصل قبيلة البشريات ..

ويقول العلماء الماديون إن السبب فى رقى الرئيسيات واعتبارها أعلى مراتب الحيوان .. أن الولادة ونتاجها كانت البداية للوجود العائلى والارتباط العائلى لضرورة حماية المولود الضعيف وضرورة الرضاعة مدة سنة أو تزيد والعناية به ثم تعليمه وتمكينه من الحياة مما يستغرق وقتا طويلا جعل الأم يثبت فيها غريزة الأمومة وحب الصغار ويثبت لدى الوالد الحب العائلى وحبه لأطفاله ومسئوليته عن رعايتهم وحمايتهم والتكفل بإطعامهم .. كل هذه الأمور زادت من مدارك هذه الثدييات الرئيسيات فزادت من حجم مخهم وتطوره وزادت من أحجام أجسادهم الأمر الذي هيأ لهم بهذه المثابات جميعا أن تكون لهم السيادة على الأرض .. والسيادة بالسيطرة على بقية الكائنات !!

ظهور الإنسان

من العرض السابق، وطبقا للمواصفات الثلاثة التي وضعها العلماء الماديون للإنسان .. ترى علماء جيولوجيا الحياة منهم يقولون بأن الإنسان بدأ يظهر على الأرض في آخر عصور حقب الحياة الحديث البلستوسين الذى استمر – فى مقولة – مليون ونصف سنة .. وفي مقولة أخرى خمسة ملايين سنة !

فمنذ مليون سنة أو ٦٠٠ ألف سنة من قبل بداية الدورة الأولى للجليد فى هذا العصر الأخير ظهر إنسان الصين، الذى هو عند العلماء الماديين أول إنسان؛ وكان حجم مخه ٩٠٠سم٣. وسمى إنسان الصين لأن حفريته وجدت بالصين.

ثم ظهر إنسان هيدلبرج منذ ٣٠٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف سنة، ويماثل إنسان الصين، وذلك فى أثناء الدورة الجليدية الأولى ..

ثم وجدت حفرية لإنسان بلتداون وكان حجم مخه ١٣٥٠ سم٣ – أى مثل حجم مخ الإنسان الحالى – وذلك منذ ٢٥٠ ألف سنة .. قبيل الدورة الجليدية الثالثة ..

وأخيرا عُثِر علي إنسان نياندرتال فى ألمانيا وحجم مخه ١٤٥٠سم٣ ويرجع تاريخ الحفرية إلي ١٥٠ ألف سنة قبل الآن .. وقُبيل الدورة الجليدية الرابعة ، كما وجدت حفرية مماثلة له فى شمال الهند ترجع إلى ٧٥ ألف سنة من الآن، وحفرية مماثلة بناحية الكوبانية شمال غرب مدينة أسوان وتبعد عنها بـ ٢٥ كم ترجع إلى ٧٠ ألف سنة من الآن [١] .

وعندما يقول العلماء الماديون إن بداية ظهور الإنسان كانت منذ حوالى مليون سنة أو أكثر فإنما ذلك على أساس أن الحفرية التى وجد بها إنما كانت لإنسان يمشى على ساقين وقامة معتدلة ويدين محررتين فلا تستعمل إلا فيما نستعمله نحن بأيدينا .. وحجم مخه كبير عن أرقى أنواع فصيلة القردة العليا وأنه يصنع أدوات حياته كمطرقة أو

(١) جريدة الأهرام المصرية ، عدد يوم الجمعة ١٩٨٥/٣/١٢ ، الصفحة الأخيرة ، عن حفرية الكوبانية

سكين حجري أو عصى .. وأنه عرف النار أو اكتشفها ..

أما قبل ذلك وبغير هذه السمات فالمخلوق أو الكائن فى نظرهم لا يكون إلا قردا أو هو من فصيلة القرود ..

وكان ذلك أيضا .. غير مربوط فى مخيلة هؤلاء العلماء ولا فى حسابهم بشىء يحدث فى السماء أو يحدث فى الأرض مما يمهد لحياة هذا الإنسان من دون المخلوقات جميعا، لأنه عندهم واحد من قافلة الكائنات التى بدأت جميعا من الماء فالخلية الحية المفردة .. واحد من قافلة الكائنات المتطورة طبقا لنظرية النشوء والارتقاء طبقا لمفهوم التطور العضوى والانتخاب الطبيعى فى دارون.

فموضوع بحثهم فى تصورهم إنما هو بحث عن الأعضاء وتطور الأعضاء تارة بتأثير المناخ الجاف الشديد الحرارة وتارة بالمناخ البارد كالصقيع وتارة بالجليد الذي يكسو الأرض ملايين السنين وتارة بوجود البحار وتارة بجفافها وتارة بامتداد الصحراوات وتارة باخضرارها ونمو الأشجار والمراعى، وتارة بالمد والجزر وتارات بخوف بعض الحيوانات من حيوانات أخرى مفترسة فتهرب منها إلى أعالى قمم الجبال أو ذروات ضخام الشجر .. فينمو لها ريش وأخري ينمو لها الفراء ! .

ولم يفصح العلماء عن سبب نمو الريش لحيوان ونمو الفراء لآخرين دونه !

ولم يذكر هؤلاء العلماء ، لماذا لم ينمو للإنسان ريش أو فراء مع أنهم ذكروه واحدا منهم اعتلا عالى الشجر !

ولم يذكر هؤلاء العلماء أيضا شيئا عن الحقب الجيولوجي والعصر الذى بدأ فيه الإنسان وجوده على وجه محدد !! كما لم يذكروا له خصيصة فى خلق ولم يذكروا كيف بدأ إلا ظنا أنه من هذه الزواحف الدقيقة !! ولم يذكروا له طولا فى أول خلقه كما ذكروا للفيل أن ارتفاعه كان ٩٠ سم والحصان كان ٤٠ سم .. ذلك بأنهم إما أنهم لم يجدوا له حفرية تفيد وتنبئ عن هذه البداية أو أنهم فى أخلاط مع القرود قد ضلوا بسبب الغفلة عن أهم

ميزة أو صفة تفرق الإنسان عن كل وسائر الملخوقات، وتمسكوا بجدع أنوفهم بأمرين : الأول هو هذه الأعضاء التذكارية - حسب قولهم - التى بقيت بالإنسان وتدل على تطوره مثل الجفن الثالث والزائدة الدودية والفقرات العصعصية ونقطة دارون والثانى ذلك التسلسل الذى كشف عنه علماء الأجنة والتشريح للجنين فى بطن أمه حيث يتطور من نطفة أى خلية حية مفردة تتكاثر بالانقسام ثم تنمو حتى الولادة مارة بذات الأطوار التى مر بها أى كائن على وجه الأرض طبقا للنشوء والارتقاء والتطور العضوى ..

أصل خاص للإنسان

لقد رأيت التسلسل سالف البيان عند العلماء الماديين للكائنات جميعا من الماء فالخلية الحية المفردة حتى وجود قرد الفيوم جد أو منبت الإنسان وفصيلة القردة معا ثم ظهور الإنسان .. في المنهج المادى .

ولكن عندما ننظر فى المعاني التى قالها العلماء المسلمون فى تفسير الاية الأساس لإيجاد التوافق مع النظريات المادية من باب القناعة لديهم وحسن الظن فى نصرة الله فإننا لا نستطيع أن نؤيد نظرتهم لعدم اتفاقها فى استنباطهم مع صحيح المعنى القرآنى فى تطبيق القواعد الأصولية اللغوية التى تستخرج بها المعانى الصحيحة والأحكام الصحيحة من القرآن العظيم.

فالله سبحانه وتعالى قال : "وجعلنا من الماء كل شىء حى" وكلمة "كل" قرينة على الشمول . وهذا طبقا للقواعد الأصولية لأصول فقه القرآن تجعل من هذه الآية الكريمة حكما عاما فيما وردت فيه.

ومن ثم؛ فإنه إذا لم يوجد ما يخصص هذا الحكم العام؛ فإن هذا الحكم يكون شاملا لجميع الكائنات دون أن يغادر منها شيئاً.

ولكن عندما نقرأ آيات الله عز وجل فى قوله تعالى :

{ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون} الروم ٤٠

{ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب} الحج ٥

{خلق الإنسان من صلصال كالفخار} الرحمن ١٤.

نجد أن الله عز وجل قد أخبر عن بداية أخرى - غير الماء - للإنسان خاصة به وحده ومن ثم فيكون هذا الحكم الخاص مخصصا للحكم العام سالف الذكر فى شأن خلق الإنسان وحده.

فالحكم العام يكون لكل الكائنات والحكم الخاص يكون للإنسان وحده من دون كل الكائنات.

ومن ثم أو بالتالى ... نجد أن ماذهب إليه العلماء المسلمون فى جعل البداية من الماء للإنسان مع غيره، هو على غير صحيح القرآن وصحيح فقهه.

وترتيبا على ذلك ..

فكل ما قيل عن تطور الزواحف الدقيقة إلى ثدييات ثم إلي رئيسيات من بينها الإنسان؛ هو من قبيل ترتيب الخطأ على الخطأ .. وأن ذلك كله فى حقيقة الأمر ليس له أدنى صلة بالإنسان بداية من أول نشأته حتى الإنسان الحالى من قريب أو بعيد.

فالإنسان خلق من تراب ..

وإذا كان هذا التراب قد أضيف إليه الماء فتخمر ثم صار صلصلا ثم صار فخارا، فإن ذلك لكى يستجاب الصلصال لصنع الإنسان فى الشكل المطلوب، فإذا تبخر منه الماء وصار كالفخار صلبا، فإن الله نفخ فيه من روحه فكان إنسانا بمطلق القدرة الإلهية.

أى أن الماء وضع على التراب لكى يستجاب عمله فى هيئة الإنسان وهو صلصال ثم يتبخر منه الماء فيبقى التراب وحده وقد صار صُلبا فى فخار، ومن هنا نعلم أنه لم يكن ماء ثم خلية حية .. الخ، ما قيل .. فهذا ليس له وجود إطلاقاً فى خلق الإنسان.

ومن هنا يثبت لنا أن الإنسان لم يخلق بداية مع غيره من الكائنات كما أن له أصل خاص به لا يشترك معه فيه أحد، كما أنه خلق من التراب فى وقت محدد لخلقه كانت فيه السماء والأرض وما فيهما وما بينهما مهيأً تماماً لاستقبال الإنسان.

وكدليل وبرهان مادي على ذلك

فإن جسم الإنسان عندما يتحلل يعود ترابا تماما لا يزيد ولا ينقص فإذا كان التراب مكونا من ١٦ عنصراً، فإن تراب الإنسان هونفسه مكون من ذات الـ ١٦ عنصرا وبنفس النسب الكمية.

إذاً فلا يوجد أصل مشترك بين الإنسان وبقية المخلوقات أو الكائنات. فلا هو بدأ ماء ولا هو بدأ خلية حية .. \لهذا نجد الله عز وجل يقول :

{الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين} السجدة .

وحرف الواو قبل كلمة بدأ لمقتضى المغايرة طبقا للقواعد الأصولية .. ومن هنا فإن معني الآية الكريمة هو أن كل شىء قد أحسن خلقه، ولكن الإنسان كانت له بداية خاصة به هى الطين .. فهو له سبيل اخرمغاير ومخالف إذ أن خلقه بدأ من التراب الذى صار طينا ثم صلصالا ثم فخارا كسالف البيان.

أما ما يقوله علماء الأجنة والتشريح

فهى السنة الكونية التي تحدث وتعمل للتكاثر .. فهى كما تحدث فى النبات بحبوب اللقاح وتحدث فى الطير بتلقيح البيض وتحدث فى الحيوان بتلقيح بويضة الأنثى، تحدث فى الإنسان أيضا ..

وكماتوجد الذرة مكونا لأى فلز كأصغر شىء فيه، فإن الذرة نفسها توجد فى الخلية الحية الجامدة والمتحركة في جسد أى كائن نبات أو حيوان أو صخر أو تراب .. إلا أنها فى كل شىء لها مثقال محدد تعرف به وهو ما يسمى بالوزن الذرى ..

فإذا جاز أن نقول إن الأصل المشترك لكل الوجود وكل ما هو موجود هو الذرة .. فأنت وذاك ..

ولكن يجب أن نعلم زن الذرة ليست موضوعا للتطور !!

ومن هنا فلسنا مع الذرة أو الماء

ولكننا مع الخالق العظيم .. فيما قرر أنه تراب وتشهد له مادة الإنسان.

وإذا قال أحد إن الله عز وجل قال {وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا} الفرقان ٥٤ قلنا له إن المقصود بالماء هنا هو ماء الرجل وماء الأنثى فى قوله تعالى {فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب}

الطارق ٥ - ٧ فهذا إذا خاص بالإنسان فى خلقه عند التزاوج تفسيرا لقوله تعالى {خلق الإنسان من علق} العلق ٢ ، فكلمة "ماء" كناية عن الحيوان المنوى والبويضة الذى ينزل فى سائل كثير فسمى ماء ..

فاللغة العربية لها قواعد نحو وصرف كما لها أساليب بلاغية تبين ألوان صورتها ولها قواعد أصولية كالنور الذي يفصح عن صحيح أحكام معانيها.

وكان بشراً

وقال رب العزة

{إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين} ص ٧١ و ٧٢.

ولم نر اعتراضا من الملائكة على خلق "بشر" من طين ..

ولم نجد عصيانا من الجن على خلق "بشر" من طين..

أى أن "خلق البشر" كنبأ عظيم من عند الله للملائكة والجن لم يكن ليثير شجنا بين الملأ الأعلى ...

فإذا علمنا أن السجود إنما جاء بعد نبأين آخرين هما لآدم بالاسم خاصة .. أولهما تعيينه خليفة فى الأرض . وثانيهما تعليمه الأسماء كلها [1] .

إذاص لعلمنا أن الشجن بين الملأ الأعلى كان فى ظرف آخر تماما .. هو ظرف خاص بآدم وحده .. عمله ... وعلمه ..

أما خلق "بشرا من طين" فليس ظرفا فيه ادم كما أنه ليس ظرفا فيه خلافة فى الأرض ولا علم بالصناعة .

وقال علماء التفسير فى شرح وتفسير أول آية فى سورة النساء : كانت الكرة الأرضية خالية من الإنسان ثم خلقه الله وأن المقصود بالإنسان الجنس [2] يعنى ذكورا وإناثا كثيرين.

وكلمة "بشر" كما قدمنا مفرد وجمع كما أنها نكرة فتفيد البشر بإطلاق .. وإذا

(١) الأسماء هى كل ما يصنعه بنو آدم ويكون لهم فيه منفعة .. وإن كان فيه ضرر !! أى فيه سلطان.

(٢) صفوة التفاسير ، جـ٣ / ٤٩١ .. وقال ابن كثير جـ٢/٤٥٣ أن الله أوجده فيه أن كان شيئا لا يذكر لحقارته وضعفه

أعملنا فكرنا وفؤادنا وجدنا أن خلق "بشر" فى أدنى أو أقل خلق، فإنه لابد أن يكون خلقا كثيرا .. وخلقا للذكر والأنثى معاً حتى يكون لهم وجود حقيقى للتكاثر بالتزاوج والانتشار حتي يقابل كافة الظروف البيئية ؛ كما أن الخلق بهذا المعنى إنما يعنى بالضرورة أنه خلق لكائن ذات ميزات ضخمة وخصوصية عظمى، فقد سبّق العلى الكبير الإخبار بخلق البشر إلى أنه "نبؤا عظيم" ص ٦٧ ، ومن ثم فلابد أن يكون خلق البشر أمر عظيم . وما دام أنه أمرعظيم فلا بد أن يكون البشر حتى وهم فى أدني خلقهم إنما على أولى درجات السيادة والرقي .. وهو ما يقتضى بالضرورة أن يكون أرقى خلقا من جميع المخلوقات الموجودة فعلا .. وأول وأهم علامات رقى البشر من غيرهم أنهم بشر وذووا دم حار . الإثنين معا جميعا.

وكلمة "بشر" أى ليس لهم جلد سميك أوريش أو دروع عظمية أو صدفية أو شعر كثيف أو فرو ..

ومن ثم فلم يكن للبشر شيء يحميه أو يدفئه .

فليس البشر نبتا من الزواحف ولا من غيرهم. وإنما هم نبت من الأرض فكانوا نباتا أى خلقا كاملا في خلقهم .. ويقول الإمام الطبرى : أنبت أى أنشأ .

قال رب العزة {والله أنبتكم من الأرض نباتا} نوح ١٧ .

وبغض النظر عن درجة رقى الإنسان فى هذه النشأة لأول مرة؛ فإن معنى الآية - تأصيلا - يصرف عن ظاهره إلى معنى أن البشر الذى خلق فى أول خلق لم يكن فى نقص حسب طبيعة هذا الخلق الأول. بدليل قوله تعالي عن مريم {فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا} آل عمران ٣٧ (١) .

فهى تفيد أنه أنشأ الإنسان كاملا لنشأته الأولى أى بالنسبة لخلقه الذى أراد الله عز

---

(١) التأويل هنا طبقا للوجه الثالث من أوجه التأويل وهو حقيقة يراد بها معني مجازيا .. مثل يد الله فوق أيديهم ؛ فيراد به قدرة الله فوق قدرتهم.

وجل أن يجعله فيه فى تلك النشأة الأولى .. النشأة لأول مرة .

ولأنه سبحانه وتعالى ذكر ذلك بصريح النص فى قوله تعالى : {الذى خلقك فسواك فعدلك} الانفطار ٧، أى خلقك أولا فسواك بعد ذلك فجعلك بعد تمام التسوية معدتلا معدل الخلق مقوما (١) .

أى أن البشر في حين النشأة الأولى أو النشأة لأول مرة لم يكن قد سُوِّي ، ومن باب أولى لم يكن معتدل القامة...

فالبشر فى حين الخلق لأول مرة كان فى هيئة ليست مسواه أى لم يسوه رب العزة بعد وأنه لذلك لم يكن معتدل القامة : فهو خلق بدائى لم تلحق به التسوية، فهو غيرمعتدل القامة أي يسير على يديه مع رجليه.

كان البشر على هذه الهيئة حين خلقه رب العالمين (٢)، (٣) .

ومع هذا، فإنه كان بشرا أى له بشرة غيرمغطاة بأى شىء. فهو مخلوق من تراب بشرا، دفعة واحدة بمطلق القدرة الإلهية، أى أنه حين الخلق لأول مرة كان بشرا يمشي على يديه مع رجليه، ومع ذلك فهو خلق كامل بالنسبة للهيئة التى هو فيها. ومعنى ذلك بالضرورة أنه لم يسبق أن كان أقل من ذلك أو غير ذلك، بمعنى أنه لم يتطور من شىء آخر إلى ما هو عليه مخلوق له بشرة ويمشي على يديه مع رجليه .. بل خلق هكذا مرة

---

(١) مختصر الطبرى /٦٨١، ولاحظ أن الفاء حرف عطف نسق تفيد مطلق الجمع والترتيب باتصال. فالخق أولا، ثم واقعة كاملة وفور تمامها بدأت التسوية وفور تمامها بدأ اعتدال القامة. وقال تفسير الجلالين / ٥٣٠ معتدل الخلق متناسب الأعضاء.

(٢) ابن كثير جـ٤/٤٨١ (الذى خلقك فسواك فعدلك) جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبا فى أحسن الهيئات والأشكال. وصفوة التفاسير جـ٣/٥٢٨ جعلك معتدل القامة منتصبا . وفى مختار الصحاح، عدَّلك شدة وفتحة فوق حرف الدال أى قومه فاستقام.

(٣) كلمة "عدلك" إذا وضعت علامة الفتحة فقط فوق الدال فذلك يعنى جعلك عديلا لآخر أى مساويا له، فى حين أن المعنى المقصود هو التسوية والتطور فى انتصاب القامة بتصحيح الهيئة فيوضع على الدال شدة وفتحة أى (عدَّلك) ومعناها قومه فاستقام - مختار الصحاح.

واحدة دفعة واحدة غيركل الكائنات التى كانت خلية حينا ثم تطورت كسالف البيان .

وهذا الذى بيناه على خلاف ما قال النظام العروض وعبد الرحمن بن خلدون ومحمد إقبال وجماعة أو إخوان الصفا وغيرهم ومن بعدهم وكل من جرى معهم قديما وكل من جرى جريهم حديثا ..

ابن خلدون – بمثابة أنه أكثر قولاً وشهرة – قال في مقدمته الشهيرة [إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته .. ثم يقول : انظر إلى عالم التكوين .. كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن .. من أعلا متصل بأول أفق النبات من أسفل مثل الحشائش وما لابذر له .. وآخر أفق النبات من أعلا مثل النخيل والكرم متصل بأول أفق الحيوان من أسفل مثل الحلزون والصدف؛ حيث لا توجد لهما إلا قوة اللمس .. ثم يقول ومعنى هذا الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد الاستعداد القريب أن يصير أول زفق الذى بعده .. واتسع أفق الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية] انتهى .

وتعقيبنا على ذلك :

أولا : تعقيب مادى تماما يتفق مع نظرة هذا الفكر المادى .. فكر أصحاب النشوء والارتقاء – وهو أن الثابت ماديا بدليل الحفريات وبدليل المشاهد الحي حتى الآن، أن النخيل الذى هو أعلا النبات وأول الحيوان : كان موجودا منذ عشرين مليون سنة وقد تزيد أثناء عصرى الرابع البيلوسين والخامس البلستوسين مازال كما هو الآن .. نخيلا كما كان من قبل تماما .

وإذاً فالنبات لا يرتقى إلى حيوان .. والحيوان لا يتطور إلى بشر..

ثانيا : الآيات القرآنية الخاصة بخلق البشر صريحة وواضحة وهى تنفى عنه أنه كان من

نبات فحيوان .. لأن الخلق تم من الصلصال كالفخار بمطلق القدرة الإلهية .. ومن هنا فإن نظرية النشوء والارتقاء تضاد هذه الآيات القرآنية .. وإذا فهم يجحدونها .. وهذا كفر وضلال.

ثالثا : النشوء والارتقاء كفكرة بالنسبة للبشر بالذات تكذب كل الآيات القرآنية الخاصة بخلق البشر من تراب .. من طين .. من صلصال كالفخار دفعة واحدة بشرا .. وتكذب كل الآيات القرآنية التى وردت فى خلق (بعث) آدم فى الجنة من تراب الأرض وخلق حواء من ضلعه وإهباطهما إلى الأرض وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، والتكذيب بالقرآن هو سمة الجاهلية .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم لادم وآدم من تراب) ، و (خلقت المرأة من ضلع أعوج) إشارة إلى خلقها من ضلع ادم. ويقول رب العزة عن كلام الرسول "وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى" النجم .



وأرى أن نعود إلى هذا الملخوق البشر الذي يمشى على يديه مع رجليه وخلق الخالق العظيم بمطلق القدرة الإلهية على هذه الهيئة دفعة واحدة ..

ولقد كان هذا البشر بهذه المثابة ليس له من أداة قوة إلا فمه مع أرجله وأرجله الأربع مع فمه !!

ولأنه ليس له أيدى .. إذا فلا بد أن يكون له ذيل يذب به عن نفسه ويغطى سوءته .. ولأنه ليس له جلد سميك – بمعنى الجلد فى المخلوقات .. ولا دروع ولا أصداف ولا عظام ولا فراء ولا شعر كثيف، فإنه بالتالى يلزمه لزوما أن يُعد لنفسه شيئا يحميه ويدفئ جسده .. يحمي بشرته الرقيقة جدا جدا الناعمة الحساسة .. من صروف الجو والمناخ والأعداء من الحيوانات والبشر أيضا من العدوان عليه .. بسهولة تامة فى جسده هذا

العارى تماما . ولابد له من شيء يدفء الجسد لأنه من ذوى الدم الحار .. وهذا يتطلب توفير المأوى والغطاء ..

فبشرة الإنسان؛ وإن كانت نقطة ظعف فى تكوينه المادي؛ إلا أنها هى السبب الأصيل القوي التى جعلت وتجعل البشر فى حاجة دائمة إلى التفكر فيما حوله حتى يجد المأوى والدفء ويجد الملاذ والأمان.

وعندما يتفكر الإنسان فى هذين الأمرين نجد أنهما السبب الآكد ، الأول والآخر والظاهر والباطن، الذى يدعو الإنسان دائما وأبدا إلى التفكر ومن ثم التقدم ..

فأساس المدنية والحضارة معاً هى مطالب دفء الحياة بعد أن كانت دفء الجسد فقط؛ وأمن الحياة وأمانها بعد أن كاننت الأمن من الجو والحيوان المفترس فقط ..

ومن هنا

أرى فى واقع ما مرَّ على البشر من مراحل التسوية فى أنفسهم وفى الأرض وفي السماء، أن بشرته كانت محرك تفكره والعامل علي زيادة حجم مخه باستمرار كما أنها كانت العامل المهم فى تحرير يديه من الأرض .. واعتدال قامته ثم بداية فى الطريق إلى التقدم فكريا .. ثم ماديا ..

ومن هنا

كانت البشرة هى الصفة الأساسية والعامل الحقيقى الذى سار بالإنسان خطوة بعد خطوة وطورا بعد طور فى كل حلقات التسوية التى تركزت فى استقامة جزعه وانتصاب قامته وبالتالى تحرير يديه من الأرض حتى صار هذا الإنسان الذى يأوى إلى القصور ويستدفء بأجهزة التكييف ...

فالسكن فى القصور فى نهاية الخلق هى المقابل الحقيقي للبشرة العارية بلا مأوى فى أول الخلق.

وانظرمعى ألا ترى أن كل سعى البشر إنما يؤدى فى قمته إلي هذا؛ وما عداه فإنها

اتباع وحواشي .. ليس إلا ..

وقد ترى معى أن نعود إلى مقالة العلماء الماديين عن وجود اثار تذكارية فى الإنسان تقول له إن نسى : تذكر أنك كنت حيوانا وطيرا .. ومن قبل كنت من الزواحف الدقيقة ومن قبلها كنت شيئا .. غير ذى اسم ..

فإن هؤلاء العلماء يقولون إن الأحياء جميعا فروع فى شجرة واحدة .. وأن أحد هذه الفروع هو فرع الإنسان .. فالكل كانوا شيئا واحدا .. وكلهم أقارب .. وكلهم للخلية الحية المفردة التى هى للماء ..

ولتذكرمعى أن جميع العلماء بدون استثناء لم يذكروا كلمة بشر ومعناها ولا شيئا منها وتفرُّد الإنسان وحده بها من دون المخلوقات جميعا ..

وأن البشرة .. على مر ملايين السنين البالغة ٧٥ مليون سنة ومع ما حدث من صروف المناخ فى درجات الحرارة وفى الخوف من الحيوانات المفترسة واعتلاء الأشجار ودورات الجليد الأربعة التى استمرت أكثر من مليون سنة فى نهاية الملايين الخمسة والسبعين .. فإن البشرة ، وغم ذلك ظلت كما هى فلم تتطور إلى جلد سميك أو يكسوها ريش .. أو ينبت شعر كثيف أو فراء كما حدث لغيرها بدون استثناء !

لقد نسى العلماء الماديون أن الإنسان له بشرة ! وأن هذه البشرة هى أهم ما فيه ! وأن هذه البشرة هى أهم ما تفرقه عن جميع المخلوقات الأخرى ولو فى ظاهره الذى هو مبحث التطور العضوى والنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعى.

لقد نسى العلماء الماديون ذلك، ونسي تابعوهم من العلماء المسلمين من فرط قهر نظرية التطور العضوى فيهم .. فلم يلتفتوا إلى البشرة ولا معني وجودها رمزا وعلما على الإنسان وأنها السمة الأساسية التى خلق بها الإنسان لأول مرة .. كما لم يلتفتوا أيضا إلى قول الحق تبارك وتعالى عن خلق الإنسان من تراب .. طين .. صلصال كالفخار !! وأنه سبحانه أخبر بذلك عن تفرد الإنسان بأصله من دون الكائنات .. وأن فى ذلك سرا لايعلمه

إلا الله الخالق .. - إلا فى أن هذا البشر إنما هو سيد الكائنات المكرم من الله .. الخليفة فى كل الأرض .. المسخر له كل ما فى السماوات والأرض .. فكيف ينشأ معها حقيرا تافها ..!

لقد نسى العلماء المسلميون ذلك {وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » فذلك جزاء من يتبع غير سبيل المؤمنين ..

أما عن بيان الآثار التذكارية فهى ترد إلى حين النشأة الأولى .. حين كان يمشى على أربع .. ولأنه ليس بذى مخلب ولاناب .. إذا فإن الإنسان كان بمثابة المخلوق الخضرى الضعيف .. فطعامه الخضروات والفواكه .. ومن ثم كان لابد أن تكون له مصارين يخزن فيها الطعام الذى يبتلعه بسرعة خوفا من الوحوش المفترسة ثم بعد ذلك وهو فى مأو اه ومأمنه يخلو إلى طعامه فيستخرجه إلى فمه فيمضغه .. حتى إذا عرف النار وصاربطهو طعامه وصارت له قوة فى أدواته وعضلاته فى يديه .. وفكره فى قلبه .. فإن طريقة أكله اختلفت وصارت كما نأكل الآن .. فأصبحت هذه المصارين ولا حاجة لها فضمرت حتى أصبحت زائدة فى حجم الدودة ..

وأما الجفن الثالث .. فلنذكر أن البشر لم يكن لهم أيدٍ محررة، بل كانتا مربوطتين بالأرض، فكيف يدفعون عن أعينهم التراب وغيره من الحشرات الصغيرة .. إذاً فكان لهم جفن ثالث يقوم بهذه المهمة العاجلة الضرورية .. فلما صار كما نحن .. فقد صغر هذا الجفن .. حتى أنه لا يرى ..

وأما الفقرات العصعصية ، فهى ذلك الذيل الذي كان وضمر، فهو لم يكن للبشر لأنه وليد أو سليل حيوان .. ولكن كان لأنه كان يمشى على يديه مع رجليه، وقامته أفقية ، فعورته مكشوفة خصوصا الإناث، فلا يدان تفعل شيئا لتخصفان عليها من أوراق أو جلد .. ولا شيء يمكنه منها .. وإذا فلابد من أن يكون له ذيل يغطى هذه السوءة ويذب به عنها .. كسنة الله عز وجل فيمن كانت تلك هيئة جسده ..

والسمع والبصر لله، هو سبحانه الذى يملكهما دائما .. {أمَّنْ يملك السمع والأبصار

.. فسيقولون لله} يونس ٣١ ، إذا فالسر فى أذن الإأنسان .. أداة سمعه عند الله وحده وليست فى دارون .

فتلك إذاً لم تكن تذكارات من أسلافه .. فالبشر ليس لهم أسلاف من غيرهم، وإنما هى تذكارات منه فيه .. كانت من النشأة الأولى .. تحكى له بدايته فى سالف الأيام .. كي يعرف كم هى عظمة نعمة الله سبحانه وتعالي عليه.

قبل بداية الحكاية

لا شك أنك ترى معى أن سالف القول ليس قصة أوحكاية تُؤثر .. فإنما هى فكرٌ ألم به العلماء والتفتوا إليه فى تأله وولة؛ فقالوا به وكأنه قناعة؛ ويتربصون له توكيدا لحقيقة مازالوا يجدُّوا لها ولو لبعض الوقت؛ ريثما يتم الكشف عن حفريتين أو ثلاث تربط الأواصر بين ما كشف من سابق؛ حتى يلتئموا على أمر فى قناعتهم قد قُدِر ..

وحتى يقول بعضهم؛ ولو ثبت أن الإنسان والقرد كانا رضيعا ثدى واحد ، فليس ثمة ما يُشين الإنسان أو ينقص قدره !!

لا أشك أنك ترى بعد هذا أن حقيقة «حكاية البشر» يجب أن تروى بالتأصيل والتفصيل الذى يُذكِّر كل إنسان بانفراد خلقه له خاصة من دون العالمين.

ذلك بأن أسلوب البحث المعمول به والذى سلف بيانه ، لم يضع فى الحسبان أهم ميزة فى الإنسان وهى "بشرته" فهى علامته التى لا يشاركه فيها أحد.

ولو أنهم انتبهوا إلى هذه الحقيقة الكبرى ما أشركوا الإنسان مع القردة فى منبت واحد، كما أصروا فى مقولتهم عن الفك ذى الأسنان المنتظمة الذى وجد بالفيوم، وأطلقوا عليه اسم قرد الفيوم فقالوا إنه فك حيوان قردى خرج منه فرعان : فرع للقرود وفرع للبشر؛ وإذ كنا قد أثبتنا .. أن الإنسان ليس له أصل مشترك مع بقية المخلوقات لأنه خلق مرة واحدة أى دفعة واحدة بشرا من تراب بمطلق القدرة الإلهية . فلم يكن من ماء ولا خلية .. ذلك بأن ترديه التراجعى إلى التراب بُرهان ذلك .

ومن ثم؛ فإن هذا الأصل المتفرد به الإنسان؛ يمنع خلطه بأى حيوان أو مخلوق ثديى أو غير ثديى.

ذلك بأن ترقى الثدييات كلها قد كانت علامته أن تكونت لهم الجلود السميكة

---

(١) جريدة الأهرام المصرية ، عدد يوم الجمعة ١٩٨٥/٣/١٢ ، الصفحة الأخيرة ، عن حفرية الكوبانية

والشعر الكثيف والفرو الثقيل والريش الكثير ... وها هى جميع الثدييات أعلام على هذه الحقيقة لا تغادر منهم أحدا .. وليس لها فى ذلك بالإنسان صلة كما ليس للإنسان بهاصلة .

وإذاكانت القردة من الثدييات ولها شعر كثيف .. فإنها أيضا ذات جلد سميك ومخ حجمه صغير .. وظلت طوال ٧٥ مليون سنة قبل الآن وهى علي هذه الصورة تكاد لم تتبدل ولم تتغير إلا فى زيادة سمك الجلد .. أى لم تتطور رغم كل ما مر عليها من أسباب التطور .. وهو ما يثبت عدم صلتها بالبشر .. حيث كانوا فى أقل صورة على أول مدارج التقدم - فى ذات الظروف التى كانت فيها القردة - فصعدوا فى ذات العصور الجيولوجية فصاروا فى أحسن صورة وأذكى عقلا وفؤادا وأروع حضارة ومدنية ..

وإذا كانت الأرض والسماء سقفها هما المسرح الذى جرت فوق حكاية البشر فى الحقب الحديث .. فإن مقولة أنه من الزواحف الدقيقة كان .. فتطور؛ مقولة يعرّيها بقاء الزواحف على ما كانوا عليه فى حقب الحياة الوسطي وحتى هذه اللحظة .. \مصداق ذلك .. حفرياتهم فى الصخور ووجودهم على مسرح الحياة إلى اليوم في هيئة متراجعة ومتدنية ..

وإذاكان الإنسان فى بدايته ؛ قد خلقه ربه يمشى على أربع وله ذيل، إلا أنه على هذه الهيئة كان بشرا، بمعنى أنه لم يكن له جلد بالمعنى الحيوانى للجلد والتى من هذه الحيوانات .. الزواحف !.

فبشرة الإنسان والتى تسمى جلد؛ هى جلد بشرى ليس له سمك .. ولكنه خلق آخرغيرخلق الجلد .. ذلك أن به خلايا الإحساس والقرآن يدلنا على ذلك فلم يذكر "جلد الإنسان" إلا فى موطن الإحسان المعنوى والمادى فيقول رب العالمين.

{تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} الزمر ٢٣.

{ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} الزمر ٢٣ .

هذا فى الحياة .. وأما فى حين جهنم والعذاب فيقول جل شأنه :

{كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب} النساء ٥٦.

ويقول التشريح الطبيبي عن الجلد الإنسانى أى البشرة : إنه أول الحواس وأن به نقاطا متعددة؛ فتوجد نقاط للإحساس بالألم، ونقاط غيرها للإحساس بالبرد؛ ونقاط أخرى للإحساس بالحر؛ ونقاط غير ما سلف للإحساس باللمس .. ونوع آخر من النقاط للإحساس بالضغط، وكل نقطة من هذه النقاط لها بُصيلة أو عضو أو انتفاخ أو ألياف عصبية من تحتها فى اللحم [1] .

وإذاً فالبشرة ليست غطاء للحم البشرى ولكنهاجهاز للإحساس الإنسانى؛ إذا أصابها مسٌ اقشعرت وطلبت الحماية ... رقيقة جميلة للغاية تعطى البهاء والنضرة والجاذبية فتحدث السكرة المطلوبة لبقاء الجنس البشري ..

أما جلود الثدييات .. فيقول عنها رب العزة :

{وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها} النحل ٨٠.

وذكر بناء البيوت (وهى هنا الخيام) من جلود الثدييات يدل على مدى سمكها ومتانتها وهى ما يظاهره الواقع المشاهد. كما أن هذه الجلود تستخدم فى كافة المصنوعات الجلدية وخاصة نعال الأحذية لفرط قوتها وقوة تحملها.

وهذا الفراء الذى يستخدم للزينة وللملابس وغيرها على جلود متينة لينة سخية يقول عما حدث للثدييات وبين بشرة الإنسان فلا يجد بينهما ولا وجه شبه.

ومن ذلك الواقع المشاهد الثابت للعيان، والعقول، الدائم المقولة لمن ينظر إليه بالحق؛ يجعلنانفهم قول الحق تبارك وتعالى عندمايصف تطورات خلق الجنين فلا يذكركلمة الجلد إطلاقا حيث يقول {... فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلق آخر فتبارك

(١) كتاب "جسم الإنسان" المعرفة ١ ، للدكتور عبد المنعم عبيد ، ص ١١٤وما بعدها. وكتاب "جسم الإنسان" ترجمة د. صلاح الدين سلامة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ٨٠ و ٨١ .

الله أحسن الخالقين} المؤمنون ١٤.

فلم يذكر جلدا يكسو اللحم، وإنماذكر أنه بعد أن كسى العظام لحما فإنه أنشأه "خلقا آخر" . وهذا يعنى لكل ذى عقل أن خطوات الخلق من نطفة فعلقة فمضغة فعظاما فلحما ... كلها أمور متماثلة مع غيره لأنها سنة كونية . ثم بعد ذلك ينفرد الإنسان بأن تكون له بشرة .. وبهذه البشرة يكون "خلقا آخر". ويزيد الله بركته سبحانه ويصف عظمته فى خلق البشرة التي بها يكون الإنسان "خلقا آخر" بأنه جل وعلا "أحسن الخالقين".

وكلمتى "خلقا آخر" دلتا علي أن الإنسان ليس من المخلوقات الموجودة على وجه الكرة الأرضية، ولكنه خلق آخر أى مخلوق غير هذه المخلوقات ..

وإذاً فالبشر ليسوا من شجرة الأحياء فرعاً مستقلاً أو غير ذلك من تلك التصورات التى تتداعى فى أفكار العلماء الماديين شاملة لكل الأحياء !!.

الدليل الآكد

القرآن العظيم

هو أعظم البرهان وأقوى الدليل ... هو الذروة وسنام البرهان .. هو الدليل الآكد ..

وإذا كان بعض الناس يظن - لعدم دراسة القرآن - أنه ليس بالقرآن علوم؛ فذلك مقولة غير صحيحة .

وإذاكان بعض الناس يظن أنه قرأ فى الكتب الدينية كثيرا ، وأنه لذلك فهو على علم بالدين، فتلك أيضا مقولة غير صحيحة.

ذلك بأن القرآن هو الكتاب الإلهى كلام الله ونوره نزل بعلمه على قلب رسوله متضمنا كل علوم الكون والإنسان و"تبيانا لكل شيء" "وكل شيء فصلناه تفصيلاً" .

وللعلم بذلك يجب أن يكون دارس القرآن قد علم لغة القرآن نحوا وصرفا وتصرفا وبلاغة وبيانا ومعني كلمات العرب والسنة النبوية المطهرة وعلم أصول الفقه وفقه الأصول وتاريخ العرب وتاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه وقاعدة الناسخ والمنسوخ وتطبيقاتها وكيف التفسير وكيف التأويل ..

فإذا علم ذلك ثم هضم ذلك واستوعبه جيدا ، وكان لديه مع كل ذلك الحب والموهبة وكان فى هداية رب العالمين خالصا بقلبه إليه، فإنه - عندئذ يكون لائقا لاستخراج المعني القرآنى واستنباط العلوم واستخلاص الأحكام ..

ومن هنا أقول لكل أخ كريم أن الأمر كله لا يؤخذ دفعة واحدة ولكنه فى حقيقته ولكى يكون صحيحا فلا بد أن يكون منهجيا مؤصلا حتى تكون له مواجيده فى نفس الإنسان.

وقد ترى معى كيف أن أساتذة كبارا وكبارا جدا قد ضلوا الطريق وأضلوا الكثيرين معهم على أسباب ليس لها فى كتاب الله العظيم سند صحيح ... بل هى فى تضاد وفى

تناقض كامل معه!!.

فالقرآن العظيم، فى موضوع هذا الكتاب، يقول للناس ...

{قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق} العنكبوت ٢٠ ثم يدلهم على هذا "الكيف" فى حكم عام هو الماء وعلى حكم خاص بالإنسان هو التراب ولن تعرف هذا من ذلك إلا بالعلم بقواعد أصول الفقه ... على النحو سالف البيان .. ثم إنه سبحانه وتعالى قد أنار للناس الطريق لإثبات هذا الكيف والعلم بدلالاته وأدلته فى السير فى الأرض، فكلمة "فى" فى الآية ليست حرف جرمجردة، وإنما هى حرف جر له أو فيه معنى الظرفية المبهمة ومن ثم أسند إلى المضاف إليه"الأرض" لتبينه، فدل على أن الحفر داخل الأرض هو المقصود بكلمة "سيروا فى الأرض" فعلمنا بالحفريات ..

فهذه الكلمات الإلهية هى النور العلمى الذى يهدى الناس إلي سبيل البحث عن كيف البحث عن بداية الخلق.

وكلمة "كيف" كلمة موضوعية؛ وإذاً فهى تعنى النظر أى المعرفة ثم استنباط العلم ببداية الخلق.

وكلمة "الخلق" تفيد الخلق بإطلاق وليس البشر بخاصة .. ومن هذا فإن السير فى الأرض أي البحث عن الحفريات واستخراجها وسواء كانت هذه الحفريات لنباتات وحيوانات وبشر وطيور. فإنها ستؤلف أو بالأدق ستكشف علما عن الأحياء جميعا؛ فإذا عرفت الصخور وأنواعها وأعمارها .. فإنها ستكشف عن علم الجيولوجيا، فإذا عرفت معها الأحوال المناخية والجوية، وآثارها منذ بدايتها واتجاهاتها وآثارها فى السكون والحركة فإنها ستكشف علما من الجغرافيا .. فإذا عرفت أعمارها صخورها وبحارها قديمها وحديثها وأنهارها ومراعيها وغاباتها وحيوانها وطيرها ونباتها وتطور هذه المخلوقات جميعا فى أزمانها فإنك ستكشف عن علم جيولوجيا الأحياء .. وكل ذلك يدخل معه أدوات كثيرة للبحث والقياس والفحص وإجراء التجارب .. مما يظهر هذه العلوم فتكون لها قواعد وتكون منها المفاهيم والدلالات والأدلة .. كما أنها تعطى

البراهين على الواقع الموجود فى الحفريات الموجودة فى باطن الأرض سواء بالموجودة على سطحها كالغابات المتحجرة ..

ولأن القرآن العظيم يضع الحقائق ويضع سبل اكتشافها فى واقع الكون؛ فإنه يكون كتاب الكون المكتوب ، ويكون الكون كتاب الله المشاهد والمنظور ،

ومن هنا؛ قال العلماء أن العلم هو ماجاء أو دل على حقيقة ثابتة يشهد لها واقع مجزوم به.

فالقرآن هو الشرح الكلامى المنظوم بالعلوم؛ والكون هو الوسيلة التوضيحية لهذا الشرح والتفصيل ...

ومن ثم؛ فعندما يصف أو يسمي ربنا عز وجل مخلوق من مخلوقاته ، ويجعل هذه الصفة عنوانا عليه فيطلقها اسما علما عليه، فإنما لأن هذه الصفة هى أهم صفاته .. ولأن هذه الحقيقة ظاهرة ، فإنها يجب أن يتفكر فيها بداية ونهاية ، كما يتفكر فيها ظاهرا وباطنا .. حتي تدل أو يستدل على العلم فيها للعلم بها.

فإذا قال الخالق العظيم أنه خلق الإنسان بشرا، فإنما لأن هذه الصفة أو الميزة التي تعلو على كل ميزة ظاهرة هى أعظم ما فيه. فليس معقولا أن الله العظيم يسمى خليفته فى الأرض بصفة ليست هى أعظم ما فيه.

فإذاكانت "البشرة" فى الواقع المشهود هى مكان الإحساس والشعور ولين القلب لذكر الله تبارك وتعالى ..

وإذا كانت البشرة هى سمة الجمال – في الآخرة – فى وجوه المتقين .. {وجوه يومئذ ناعمة} الغاشية {وجوه يومئذ ناضرة}.

فوصف البشرة فى الوجه بالنعومة والنضارة مما أعطى الإنسان مقولة الله تعالى {صوركم فأحسن صوركم ...}.

فإن البشرة وحقائقها المتناهية الرقة وإحساسها وشعورها المتعاظم السمو ونضرة

الجمال وحقائقها فى تكوينها المادى الشديد النعومة الجميل الملمس، ليؤدى إلى الإحاطة بمعرفة البشرة واستنباط العلم بها.... وبالتالى يلزم عدم الغفلة عنها فإذا بالإنسان عند العلماء الماديين الذين كانوا وظلوا فى هذه الغفلة وكأنها أى البشرة - مع الفرو والريش والدروع الصدفية وغيرها كلها معا فى عَمَاً فلا فارق ولا تفرقة ... كلها أخلاط ...

ومن هنا، يتبين أن الانخراط فى النور الإلهى فى قرآنه والنور الإلهى فى واقع المخلوقات، يهديان الإنسان السوى إلى الحقيقة الكونية الموصلة فى القرآن العظيم حتى إذا تفكر فيها بهذا الهدى أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.. وصل إلى الحق بغير عنت ولا ضلال .. وجاءت هدايته فى صميم الموضوع مؤدية إلي الاستنباط الصحيح للدليل والبرهان فالعلم بها ..

ومن هنا؛ نرى أن سبيل البحث عن "كيف بدأ" خلق البشر له سبيل آخرخاص غير سبيل كيف بدأ خلق القرد أو البقر !! فى مقوماته وسبله وشرائطه عن ذلك السبيل العام الذي اتخذ لكل المخلوقات معا فجعلوا .. وهذا قناعة عندهم - كل المخلوقات شجرة واحدة لها فروع مختلفة ..

ولست معارضافي كل ما خلق الله من شيء ولكن خلق البشركان خاصا به فى كل شيء .

خاصا به فى أصله فهو من تراب .

خاصا به فى تطوره فهو خلق بمطلق القدرة الإلهية دفعة واحدة بشرا وإن كان فى حجم صغير ويمشي على يديه مع رجليه وله ذيل .. فهو ليس خلية ثم تطور

خاصا به فى بشرته فليس ثمة مخلوق اخر له بشرة .

خاصا به فيما أودعه الله فيه من روحه سبحانه وتعالى.

خاصا به فى الوقت الجيولوجى الجغرافى والمناخ العام وحالة السماء كيف كانت ..

والشمس كيف كانت .. فذلك كله خاص بالبشر وإن انتشر على باقى المخلوقات من حواليه.

ومن ثم؛ فإن سبيل البحث يجب أن تتوافق للكف عن البشر فى الحفريات مع ما تنبئ عنه بشرته من ميزة تفرقه عن كل المخلوقات دونما شريك له فى شيء.

ذلك بأن الأرض مع السماء كانتا هما المسرح الذى تجرى عليه تمثيل الحكاية البشرية ، وكل ما خلق الله من شيء عليه مع استمرار العرض حتى الآن ..

وإذاً فربط الأرض بالسماء، والشمس.. ومعرفة حالة الكون طورا بطور وحقبا بعد حقب . أمر لازم للوصول إلى معرفة المناخ المناسب والملائم لوجود البشر ... وتسويته حتى اعتدلت قامته .. وحتى صار أهلا فى التفكر فى الأحدية الإلهية واليقين بها وباليوم الآخر ..

فإذا كان الجو شديد الحرارة حتى جفت البحار وانتشرت الصحارى .. فلا شك أن ذلك الجو لا يتوافق مع خلق البشر .. وهم فى أول نشأة ضعافا عاجزين عن العمل الخلاق للمعيشة .. عراة لا حيلة لهم ...

{وخلق الإنسان ضعيفا} النساء ٢٨.

فإذا ذهب الحر الشديد ثم تطاول الجليد وامتد بطول الأرض وعرضها .. إن صح التعبير .. وساد هذا الجو الجليدي الأرض ملايين السنين .. وفي نهاية حقب الحياة الوسطى جاء جو بارد قارص ودائم ملايين السنين حتى أودى بدولة الضفادع الكبرى .. فلم يكن صالحا ذلك الجو أبدا لخلق الإنسان فيه .. ومن ثم يكون ظلما عقليا وضياعا فكريا إذانحن تنادينا بخلقه فى هاته الزواحف حتى إذا انفلت من هذه الأجواء المميتة ، صعدنا به الشجر ...

ومن ثم، كان قول العلماء الماديين في ذلك الأمركله قولا مرسلا، لم أجد له صدى في الأرض ولا فوق الشجر .. فضلا عن أنه قول بغير وجه يرنو إلى احتمال تصديقه فى

حفرية .. سيما وأن حفريات البشر عندهم لها مواصفات أخر.

لهذا وجدنا، أنه بعد ذهاب البرد الشديد وسطوع الأيوسين أو عصور حقب الحياة الحديثة، واعتدال الجو نوعاً، فقد ظهرت الثدييات جميعهامرة واحدة .. وكان من بين ما ظهرذلك الإنسان في حجم القط المتوسط الذي وجدت حفريته فى الفيوم فى فكك ذو أسنان منتظمة. وهو بهذه المثابة لايكون من فصيلة القردة .

ولو أن البحث يسير سيرة صحيحة؛ لركّز الباحثون على التنقيب فى منطقة الفيوم حتي يعثروا على سلالة الإنسان ويعلموا منها كيف بدأ الخلق وتسلسل الخلق فى أطوار تسويته طورا بعد طور، بمثابة أن منطقة الفيوم جيولوجيا وجغرافيا كانت المنطقة المثالية لخلق البشر فيها، فهي منطقة معتدلة الجو والحرارة كثيرة الخضرة وافرة الماء مليئة بالأشجار والأنهار دائما ساكنة فلم يحدث فيها تغيرات جيولوجية تذكر .. فلم يكن بها زلازل ولا براكين لمدة تطول إلى سبعين مليون سنة.

وقام فريق من العلماء الباحثين خلال العقد التاسع من هذا القرن بالبحث فى منطقة الفيوم إلا أنهم لم يوفقوا إلى شيء : ووجدوا فى منطقة "الكبانية" شمال غرب مدينة أسوان بـ ٢٥ كم بمصر حفرية لإنسان من نوع النياندرتال متحجر منذ ٧٠ ألف سنة مضت. مثل التى وجدت بأوروبا والهند (جريدة الأهرام - المصرية - يوم الجمعة ١٩٨٢/٣/١٢ الصفحة الأخيرة). وهو ما يدل على أن الدورة الجليدية الرابعة فى نهاية حقب الحياة الحديث قد شملت الأرض كلها.

وإذا كان علماء جيولوجيا الحياة، العبرة لديهم فيمن يُعتبرُ إنساناً هو أن يُعثر من كثرة تعاريج مخه وكبر حجمه على قدرته على الكلام أو على قدرته على صنع الالات البسيطة ... وليست العبرة لديهم على الصفات التشريحية.

فإن هؤلاء العلماء لن ، وأكررها ، لن يستطيعوا الوقوف على كيف بدأ خلق الإنسان طالما أن ذلك هو سبيلهم وأن الإنسان إنما تطور مع بداية الخلق من خلية حتى تطورت بعض الزواحف التى تطورت ثدييات التى تطورت وأصبحت من الرئيسيات حتي صار

إنسانا يسير على قدمين وله يدان، هذه هي قناعتهم، وتلك هي نظرية النشوء والارتقاء ونظرية التطور العضوى.

ولأن الثابت قرآنيا {وهو الحق من ربك} أن الإنسان في خلقه لأول مرة كان فى أقل شأنه أى فى أول لحظة لخلقه كان مخلوقا بشريا يسير على يديه مع رجليه، وله ذيل وحجمه مثل حجم القط المتوسط أى هو كان هكذا فور خلقه، ولم يكن شيئا أقل وتطور؛ وبالتالى فليس من المتصور بالضرورة أن يكون فى ذات لحظة وجوده على مقدرة على الكلام ولا هو يستطيع ولا بقادر على صنع الأدوات ذلك بأن هذا الخلق المتدنى، بطبيعة خلقه لايمكن أن تكون فيه القدرة على شيء من هذا، ومن ثم فلن يعرف هؤلاء العلماء ... كيف بدأ خلق الإنسان طالما أنهم ليسوا على السبيل الذى رسمه القرآن.

وبالتالى ، فإنه إذاوضعت البشرة نصب أعينهم . وأنهاكانت فى البداية خلق صغير الحجم يسير على أربع وله ذيل تكسوه بشرة قد تكون فيها شعر ولكنه لا يقاس بشعر الثدييات، فإنه فى هذه الحالة ستكون الحفريات دلالات ذات شأن للمعرفة المطلوبة.

وإذا فأسلوب البحث عن بداية خلق البشر يجب أن يكون أساسه :

١ - أن تكون الحفرية لكائن له بشرة،

٢ - أن يكون ضئيل الحجم

٣ - أن يسير على يديه مع رجليه

٤ - أن يكون له ذيل

٥ - لاعبرة بحجم المخ ..

فهذا الذى يقول رب العالمين فيه :

{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً} الإنسان ١.

ومن هذا تتوالى الحفريات ...

حتى تصل إلى هذا الإنسان الذى أطلقوا عليه قرد الفيوم ثم هذا الذي أسموه قرد الجنوب الذى يسير منتصبا معتدل القامة على قدميه وله يدان حجم مخه ٦٠٠ سم٣.

ولأنه معتدل القامة، فذلك الذى تمت تسويته .. ويتفق مع قوله تعالى : {الذى خلقك فسوك فعدلك} فاعتدال القامة هو برهان التسوية .

وهذا لا يعنى أن الإنسان قد توقف عند هذا الحد .. ولكن هناك الكثير من الترقى للإنسان ... كما بين لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

{فى أى صورة ما شاء ربك}

ثم تمام الترقى فى قوله تعالى :

{ ... وصوركم فأحسن صوركم ...} غافر ٦٤ ، والتغابن ٣..

ويجب أن نلاحظ هنا مسألة مهمة جدا هى أن حوالى ٩٠٪ من تسوية البشر إنماكانت مركزة فى تحرير يديه من الأرض .. الذى ترتب عليها اعتدال وانتصاب قامته وضمور ذيله ومصارينه وجفنه الثالث وتراجع فكيه ومقلتا عينيه فتهذب وجهه وتحسنت صورته .. وبعد أن كان مربوطا بعينيه للأرض وبالأرض .. صار سامق الطول يرفع رأسه إلى السماء مناجيا خالقه العظيم .

كل هذا كان السبب الوحيد فيه هو تحرير يديه من المشى عليها.

وإذا فتسوية البشرمختلفة تماما عن تسوية باقى المخلوقات ..

مقدمة ... للبداية فى الحكاية

ما هو الموت ؟ ... وما هى الحياة ؟

فى اللغة : الموت ضد الحياة .. والموات ما لا رُوحَ فيه

فى اللغة : الحياة ضد الموت [1] .

ويقول رب العزة :

{ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون ...} الأنعام ٩٣ .

فالموت يكون عند خروج النفس من الجسد ، أى عندما يصير الجسد بلا نفس.

وبعد قول الله سبحانه ، فلا قول لأحد.

والنفس من أمر الله سبحانه لايعلم أحد عنها شيئا إلا أنها خلق منوٌر ؛ لقوله سبحانه {والصبح إذا تنفس} أى ظهر نوره

والروح من أمر الله لا يعلمها أحد ..

ويقول الصوفية أن الإنسان يتكون من نفس وقلب وروح وسر وعين السر. وأن كل أولئك داخل حلة هى الجسد [2] .

ودليل وجود الروح فى كل إنسان هو قوله تعالى : {ثم سواه ونفخ فيه من روحه} السجدة ٩ .

ولأن النفس منورة فهى مادة لأن النور مادة .. ولكن لا أقول إنها نور .. ولكن لها

---

(١) مختار الصحاح ، ٦٣٩ ، ١٦٦ .

(٢) كتاب "الإمام القشيري" ٢٦٤ د.إبراهيم بسيونى - مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢، ١٣٩٢هـ.

نور .. فماهية النفس لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى ..

ولأن الملائكة نور - كما ورد بالسنة المطهرة - وينفخون الروح فى الإنسان وهو مضغة فى الرحم (قد مضي عليها ١٢٠ يوما كالحديث الشريف) فإن الروح قد تكون (وقد إذا دخلت على المضارع أفادت الاحتمال . والاحتمال يزيل الوجوب) مادة أخف وأشف وأقوى من النور !!

ولأن الإنسان يرى بالنور ولا يرى النور

فإن الإنسان لايرى الملائكة ولا يرى النفس ولا يرى الروح

وباسقراء كتاب الروح لابن القيم، نجد أنه قد انتهى إلى هذا الرأى من وجه آخر فى تعريف الروح [١] .

ومن هنا يتبين أن الإنسان، وإن كان جسدا ونفسا وروحا، إلا أن ثمة شىء يسيطر عليه فيأمر النفس بالخروج عند الموت؛ أو يأمرها بالتقوى فينهاها عن الهوى فى قوله تعالى : {وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى} النازعات ٤٠ و ٤١.

ولماكان الله سبحانه وتعالى جعل مناط صدق الإيمان أن يبيع الإنسان نفسه وماله لله سبحانه كما فى قوله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ..} التوبة ١١١.

ولما كان القلب هو محل المعرفة والعقل والفؤاد واستنباط العلم [٢] فقد قال علماء الصوفية : إن القلب هو أمير الإنسان والنفس أسير القلب والجوارح رعية، فالقلب هو الآمر الناهى للنفس والنفس هى الآمر الناهى للجوارح. ولذلك قالوا : إن "النية" التي هى

---

(١) كتاب الروح لابن القيم ، ٢٦٦، وما بعدها .

(٢) هذا الموضوع متفق عليه بين علماء الصوفية .

أساس العمل محلها القلب [1] .

فإذا قلنا إن النفس بداخلها الروح، والسر وعين السر، فإن خروج النفس من الجسد يعنى خروج كل أولئك منه. فيكون الموت للجسد .

ويقول العلى الكبير {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يُميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون} البقرة ٢٨.

ويقول علماء التفسير عن "كنتم أمواتا فأحياكم" أى كنتم عدما فأحياكم .. ولكن هذا التفسير لا يتفق مع معنى الموت.

فهل الموت قبل الحياة ؟ وهو ما قاله العلماء آنفا فى قولهم .. بوجه من الوجوه !!

وإذا كان كذلك، فكيف نفسرقوله تعالى :

{ربنا أمتَّنَا اثنتَيْنِ وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل} غافر ١١ .

ولأن ذلك أمر على أكبر قدر من الأهمية فلابد من الإلمام بالمعنى إلماما تاما وبقناعة أكيدة .

ولأنه سبق أن بينا "كيف" الموت .. وأنه خروج النفس بما فيها وهى الروح والسر وعين السرمن الجسد .. الذى بذلك يصير ميتا وسوءة توارى التراب ..

وأن الموت بهذه المثابة ما هو إلا نهاية للحياة .

فإذا كان ذلك، كان بالتالي معنى الآيتين السابقتين أنه كيف تكفرون بالله وقد أماتكم بعد حياة ثم أحياكم فى هذه الدنيا ثم تموتون فيها ثم يبعثكم ، وهذا البعث الذى هو قوله {ثم يحيكم ثم إليه ترجعون} لأنه بعد كلمة "يحييكم" لا يوجد موت.

وهذا يعنى وجود "حياة أولى" وموت نهاية لها. ثم وجود "حياة ثانية" وموت نهاية

(١) كتابه (لطائف المنن) لابن عطاء الله ، هامش صفحتى ٤٧، ٤٨ لمحققه شيخ الأزهر الأسبق الإمام عبد الحليم محمود عن كتاب "فيض التقدير" جـ ٦/ ٢٩٢.

لها ثم بعث للحساب والجزاء .

وإذا فقد وجدت موتتان ووجدت حياتان ثم بعد ذلك اعتراف بالذنوب فى الحساب حين البعث.

وهذا يعنى أن الإنسان يموت مرتين : المرة الأولى فى الحياة الأولى التى خلق فيها لأول مرة. والمرة الثانية فى هذه الحياة الدنيا ثم بعد ذلك يكون البعث ومن ثم يوجد التطابق بين الآيتين.

أما إذا كان معنى الآية ١١ غافر أن الله عز وجل أحيا الناس حياتين : الأولى فى هذه الحياة الدنيا، والثانية فى حين البعث ، فإن معنى ذلك أن الإنسان يموت مرة واحدة فقط هى التى في نهاية حياته فى هذه الحياة الدنيا .. فمتى كانت الموتة التى قبلها أى الأولى .. لذلك قال العلماء عن الموتة الأولى أنها العدم ..

يعنى لم تكن ثمة حياة للإنسان سابقة على هذه الحياة الدينا .

ولماكان ذلك غير صحيح .. ويخالف صريح النصوص القرآنية .. (١)

فقد لزم أن نقص "حكاية البشر"

ولما كانت الآيات القرآنية العديدة مثل قوله تبارك وتعالى :

{إنى خالق بشرا من طين} ص ٧١ .

فلا تعقب الملائكة بشىء ..

ثم يقول رب العالمين :

{إنى جاعل فى الأرض خليفة }

فتقول الملائكة : "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} ..

---

(١) فهم المعنى بصريح النص هو أول قاعدة دلالة النص الأصولية اللغوية .

ولأن الملائكة لا تعلم الغيب، فإننا تتكلم عن واقع رأته وسمعته قد حدث من البشر الذين يريد ربنا عز وجل أن يجعل منهم خلفاء الأرض، ومن ثم يفارقون بين أعمال البشر وبين أعمالهم فيقولون {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك} البقرة ٣٠.

أى أنه عند الإنباء عن تعيين الخليفة الذى أفصح ربنا عن أنه آدم .. فإن الملائكة قد تذكرت ما فعله البشر الذى كان آدم واحدا منهم .. فإن الملائكة أفصحت أن هؤلاء يفسدون فى الأرض ..

مع أن آدم بنص صريح الآيات القرآنية هو أول وأب البشر الموجودين فى هذه الحياة الدنيا ..

{ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ..} النساء ١ .

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى بقوله (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

وإذا فقد كان قبل آدم بشركثيرون لإفادة الجمع فى كلام الملائكة عنهم.

ولا بد أن يكون هؤلاء البشر قد ماتوا حتى يصح أن يكون آدم أول البشر .. فى هذه الحياة الدنيا .

لهذا؛ لزم بالضرورة أن نقص "حكاية البشر"

وإذاكان قبل آدم بشر كثيرون ، فإنهم كانوا طبقا لواقع الحفريات طورا بعد طور نسلا من نسل، وكان حجم أمخاخهم ٦٠٠ سم٣ ثم زاد إلى ٩٠٠ سم٣ ثم زاد إلى ١٣٥٠ سم٣ ثم انتهى إلي ١٤٥٠ سم٣ .. على التوالى ولابد أن يكون بين هذه الأرقام أخرى متدرجة على مدى ملايين السنين فى أطوار التسوية ..

وأن الدورات الجليدية الأربعة فى آخر حقب الحياة الحديث التى استمرت مليون سنة تزيد قليلا أو تنقص قليلا .. قد داهمت البشر وهم فى أوج أكبر حجم لأمخاخهم .. فأفنتهم جميعا وحجم مخ أكبرهم ١٤٥٠ سم٣ .

ثم تبين بالقياس المادى أن حجم مخ البشر بعد هذه الهلكة الكبرة فى بداية العصر الحديث الذى هو منذ ٢٥٠٠٠ سنة وحتي الآن هو ١٣٥٠ سم٣ .

أى أن البشر الحديثون ليسوا هم نهاية البشر فى نهاية الدورة الجليدية الأخيرة؟

لهذا فقد وجب أن نحكى ونروى "حكاية البشر"

وإذا كان رب العزة قد أخبرنا أنه جمع الناس جميعا "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" الأعراف ١٧.

وإذا كان هذا الموثق العظيم قد أخذه رب العزة بجلاله على البشر جميعا معا عيانا

وهو الذى لم يحدث فى هذه الحياة الدنيا .

أليس هذا يجعلنا على شوق . لنعرف "حكاية البشر" ؟

وإذا كان العلى الكبير

قد أحصى من أخذ عليهم ذلك الموثق العظيم وعدَّهم عدا .. أفلا يدعونا هذا أن نعلم من هم هؤلاء البشر .. ومن كانوا .. وكيف كانوا؟ لأنه فى هذه الحياة الدنيا لم يكتمل عدد الناس بعد .. ولا نعلم متى يكتمل ؟ أفلا يكون ذلك مدعاة لنسمع "حكاية البشر"؟

وإذا كان العلى الكبير

وكل ما خلق .. السماوات والأرض والنجوم .. ومن في الأرض ومن فى السماوات .. كلهم أفرادا .. قد عرض عليهم رب العالمين أن يحملوا " الأمانة" فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .. وحملها الإنسان !!

ولأن هذا العرض قد حدث - قطعا - قبل هذه الحياة الدنيا التى جاءها آدم وحواء ومعهما إبليس ، وكل ما فى السماوات والأرض وما بينهم مسخر للإنسان بصريح نص

القرآن .

أفلا يدعونا هذا أن نعلم من هو ذلك "الإنسان" الذي كان فى الأرض وكل ما حوله فيها وما فى السماوات ليس مسخرا .. ومع ذلك اختار أن يحمل الأمانة وقد رفض الجميع حملها.

أفلا يحرضنا ذلك الموقف علي معرفة متى وكيف حمل هذا "الإنسان" هذه الأمانة من دون الكون جميعا ؟

وإذاً فلنسمع "حكاية البشر"

بدليل القرآن المسطور العلمى وبرهان الرحمن فى كونه المادى وشهادة الأرض والسماء له رداءً وتصديقا وجزما وقطعا ، ونفس البشر وأرواحهم وأفئدتهم فى أجسادهم وأيديهم ورؤسهم وأصلابهم فى قلوبهم .. يروى بهم كلهم ربهم عز وجل في عليائه .. "حكاية البشر" ...

الحياة .. الأولى

(حياة الخلق لأول مرة وتسوية واعتدال القامة والتفكر وتكريس التوقير لله سبحانه)

ما هى الحياة ؟

قد توافقنى على أن الإجابة على هذا السؤال قد سبق بيانها بأنهاما هو ضد الموت، فما هو الموت؟ فإنه ما هو ضد الحياة !!

وذلك عندى ليس إجابة إلا بأخذ الأمور بشواهدها الظاهرة ...

ومن ثم

قد تقول : الحياة هى كل موجود له حركة فى ذاته ولو كانت غير ظاهرة .. وهذا القول لا يترك فى رأيي شيئا يموت. فالميت وإن كانت تفني حياته كمخلوق له بهذه الصفة حركة معينة، فإنه بعد أن تفنى هذه الصفة فإن كل ذرة من ذرات جسده بعد ذلك مستمرة الحركة فى نفسها أو فى ذاتها فهى فى حياة ..

بذلك يقول العلماء أن المادة لا تفنى .. .. هذا بالنسبة للجسد فماهو الأمر بالنسبة للنفس والروح ؟

الثابت أيضا قرآنياً وفي السنة المطهرة أن النفس دائمة كما فى قوله تعالى .. {ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية} الفجر ، هذا للمؤمنين .. وللكفرة {أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون} ولقد حاول العلامة ابن القيم التعرف على النفس .... هل هى الروح أم أنها مستقلة بذاتها .. وما هى النفس .. فاختلف العلماء ..

ومن ثم فليس لنا أن نسير وراء ذلك .. فهى غيب من الغيبيات مثل الروح والسر

وعين السر ... وإن كان علينا أن نؤمن بها لأنها حق.

والحياة الأولى للبشر

لم تكن حياة قفراً ، وإنما هى حياة بكامل معانى الحياة فى ذات البشر الذى بدأ الله عز وجل خلقه لأول مرة من التراب كسالف البيان وإن كان هذا الخلق متدنيا، فهو فى حجم قطة متوسطة يسير على يديه مع رجليه وله ذيل .. بشرا كثيرين ذكورا وإناثا ..

فإذا كان هذا هو بداية الحياة الأولي للبشر فإن ذلك قد استمر ملايين السنين .. ربما أربعين مليون سنة ولم تكن هناك سماء إلا دخان ولم تكن هناك طبيعة قد تكونت ولم تكن هناك شمس تدور حول الأرض ولكن شمسا تقف أمام الأرض .. لأن يابس الأرض كان قارة واحدة في النصف القديم من الكرة الأرضية .. ولم يكن هناك ليل بمعنى الليل ولا نهار بمعنى النهار .. فالجو غيم دائما وأبدا .. ملايين السنين .. بعدئذ نسأل متى ينام ومتي يصحو كل من فى الأرض ..

ولعل الإجابة أن ذلك كان أمرا مرده الراحة بعد الوهن والشبع بعد الجوع والخوف للطمأنينة .. والسكون بعد الاضطراب والقلق .

وقد تسأل .. كيف الشمس واقفة ؟

والإجابة من عند الله عز وجل خالق كل شيء .. فيقول سبحانه عن الشمس مع أهل الكهف {وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه، ذلك من ايات الله } الكهف ١٧ .

فقد كتب ربنا عز وجل أن يبقى أهل الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا .. ومن ثم كان يلزم لاستمرار هذه الرقدة والنومة هادئة ساكنة أن لا تمسهم الشمس ولا تدخل إلى الكهف بأشعتها فجعل الشمس تميل عن كهفهم ذات اليمين عند شروقها .. وتنقطع عنهم عند غروبها .. فلا يدخل إليهم إلا ضئيل من شتات ضوئها .. فلا يمسهم ما يزيد عن لوازم نومهم .

وكذلك : خلق الله العظيمُ البشر ضعيفا حتى تكون قوته فى لطائف قلبه عاملا متفكرا .. لأن ميدان حياته هو التعمير .. وليس التدمير .. والتدبير وليس التبذير والعمل بعزيمة وليس السعى بالفساد.

فأوقف الشمس في وسط دخان كثيف مهول ... أكثر من أربعين مليونا من السنين لم يكن للبشر فيها يدان تعملان .. فلما تجاوز ذلك الرباط بالأرض .. ونصب رب العالمين الجبال وأنزل الأمطار وخلق الأنهار وأخرج الشجر والثمار .. وتم تسوية البشر فأطلق ليديه العنان وجعله منتصبا بقامته ناظرا إلى فوق وأمام .. متفكرا في كيف يقوم وينام في مأوى بهذه الأرض التى ذلّل الله عز وجل له فيها الأنعام. وهيأ له بها قوة كما لو كانت كل أعظم المركبات في هذا الأوان، وجعل له فيها طعاما شهيا، وشرابا لبنا سائغا أغناه بها عن القنص والصيد وألزمه بذلك سنة الاستقرار والقرار، فبدأت الأسرة والقبيلة، وبدأت النظم والمعتقدات .

ولم يستمر البشر على ذلك كثيرا.

فقد اكتملت لهم طبيعة الكون .. فقد دارت الشمس حول الأرض فإذا غربت ظهر في الليل القمر ... فوجدوا الشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . وجدوا الطبيعة ... فوجدوا أنفسهم .. بشرا عبيدا لله خالق كل شيء .

والله عز وجل قدر الموت نهاية للحياة .

في قوله تعالى

" نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين" الواقعة.

فكان الموت درسا قاسيا للبشر الضعيف ، فالإنسان في جهالة العلم يأنس بذريته وقرابته ويتقوى بهم ، فإذا أخذ الموت منهم، كان ذلك ممايصيب ذواتهم في قلوبهم بالحزن الدامي .

ولعل هذا الأمر المكتوب على كل حي كحق لله في عباده، إنما هو الذي يُنبه فيهم

صحوة الضمير إذا غفل، وفواق العقل إذا غشاه باطل، ودخول النور إلى الفؤاد إذا ما اكتمل للإنسان زاده من الحكمة، فإذا به إلي العزيز الحكيم يأوب ويخبت وإذا بيقينه بالآخرة يزداد فيبعث فيه .. في وجدانه .. في قلبه .. في صدره بكل عوامل المعرفة بالله الخالق البارئ المصور والذي إليه يرجعون، ويرجع الأمركله ..

كان البشر في أول خلقهم .. مبهورين بماهم فيه .. مدهوشين ببشرتهم مع شدة الحياة من فراغ ما يسد الحاجة وهم إلي كل حاجة في حاجة .. إنهم وإن كانوا في حجم القطة ، إلا أن للقطة شعرغزير يحميها من الجو وأظفار حادة تهاجم بها ونوع من الاستعداد المخوف لمن يهاجمها .. وسرعة ومرونة فائقة في المناورة والهرب .

فأين البشر من كل ذلك !! .. لقد كانوا في ضعف مأوي يرثي له .. ومن هنا كان الحنان الإلهي معه .. فهو خالقه وهو الذي يسويه.. فلم تكن الشمس تزجي له حرارة إلا بالقدر اللازم ولم يكن الجو يبرد إلا بالقدر المناسب .. ولم يكن البشر في غفلة عن الاجتماع لوصل بعضهم إلى بعض في شيء من رباط للقوة ..

وإذا كان أحد يعترض على هذه البداية الهزيلة للبشر، فلعل هذا كان بداية لخلق الطموح في البشر .. فكان ذلك هو أول دافع للبشرية جميعا للتقدم في جميع مدارج الحياة .. بالطموح يتقدم .. وبدونه يعود في أعماقه إلى سالف حاله وإن كان في هيئة غير الهيئة وفي لباس فوق البشرة .. وفي بيت أخاذ وليس في جحر أو فوق شجرة ..

أول الحكاية ... ليس ادم

وأسمع الذين يقولون إن آدم خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة نهاية الأيام الستة التى خلقت فيها الأرض ثم ما فيها ثم السماء [1] .

وهذا القول لا دليل عليه .. وإن كان قاله أحد فهو حبر الأحبار في رواية إسرائيلية تطابق سفر التكوين في أول التوراة .. والتوراة محرفة بنص القرآن العظيم ..

ولكن كتاب ربنا عز وجل هو الدليل الذي يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. أنزله وحفظه ..

فإن آيات القرآن العظيم صريحة النص على أن الله عز وجل عندما أراد أن يخلق البشر، فقد كانت الأرض موجودة وكانت الملائكة تسبح بحمده وتقدس له جل جلاله، وكان إبليس كالطاووس فيهم علما وشكلا، فأخبرهم رب العزة بنبأ عظيم أنه خالق بشرا من طين. وأن هذا البشر سيسوي وينفخ الله عز وجل فيه من روحه .. وعندئذ عليهم أن يسجدوا له.

وأخبر سبحانه بأنه يخلق البشر من تراب الأرض في قوله تعالى : "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى" طه .

إذاً كانت الأرض موجودة .

وكان الملائكة موجودين .

وكانت السماء موجودة ..

وكانت كل الآيات التى تكلمت عن الخلق؛ بداية في أول مرة؛ قد تكلمت عن خلق

---

(١) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن اليوم من أيام الخلق الستة هل هو يوم كأيام الدنيا أو كألف سنة مما نعد .. قال : إن اليوم عند الله لا يعلمه إلا الله .. فيوم بألف سنة ويوم بخمسين ألف سنة .. فالله عز وجل الأعلم بمقدار اليوم من أيام خلق الأرض والسماوات.

"بشرا من طين" .

وكلمة بشر لاتعنى آدم .. ولكنها تعنى مطلق البشر .. كثيرين .. ذكورا وإناثا بدليل قوله تعالى "ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون" الروم ٢٠ .. فالآية تتكلم بلفظ الجمع .. كثيرا ..

فإذا تكلم ربنا - بعد ذلك بملايين السنين - عن الخلافة في الأرض وتعليم آدم الأسماء كلها وسجود الملائكة له ..

فقد كان ذلك عن ادم بالإسم علما له وحده بالتخصيص .. ولم يكن أحد من البشر في الأرض كلها على حياة ..

فقد كان كل من عليها من آدم وذرية من قبلهم قد أهلكتهم هلكة مائة ألف سنة من الجليد ليلا ونهارا على مدى هذه المائة ألف سنة .. فلم تبق منهم أحدا ولم تذر ..

ومن هنا

نرى أنه ليس ثمة صلة بين ملايين السنين التى خلق فيها البشر في أدنى صورة ثم دخلوا في أطوار التسوية طورا بعد طور حتى اعتدلت قاماتهم وتحررت أيديهم .. ودخلوا بلاء الجليد في دوراته الأربعة وما حدث في الفترة بين الجليد الثالث والجليد الرابع.

ليس ثمة صلة بين هذا كله وبين الإخبار الإلهي عن خلق آدم وجعله خليفة في الأرض...

فالفترة الأولى الطويلة جدا ، خمس وسبعين مليون سنة كان فيها الخلق لأول مرة .. كانت الحياة الأولى ..

أما جعل آدم خليفة فذلك كان في هذه السنوات القريبة جدا منا منذ ٢٥ ألف سنة .. وكانت هي بداية الحياة الثانية .. بداية الحياة الدنيا من آدم وحواء وبث منهما رجالا كثيرا ونساء.

فعندما قال الله عز وجل لنا : "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق " فإن

معنى هذا بمفهوم المخالفة أن بداية الخلق كانت شيئا آخر غير ما هو الآن الذي هو نهاية الخلق .. أى الخلق الآن من علق ..

كما أن بداية الخلق في الحياة الدنيا من آدم وحواء دليل آكد على هلكة كل البشر الذين كانوا من قبلهم ومعهم في الحياة الأولى ..

وأن الحياة الثانية بدأت باختيار آدم وخلق حواء من ضلعه

"إن الله اصطفى آدم .." آل عمران ، ومعنى اصطفي أي اختار والاختيار يلزمه التعدد .. أي الذين كانوا مع آدم ومن كانوا من قبله !! .

ألست بربكم ؟

لقد تكلمت عن ادم لأقطع السبيل على تلك المقولة الخرافية أو الجاهلية التى تقول أن بداية البشر كان آدم وحواء وذريتهما منذ بداية الخلق وحتى الآن، وليس قبل آدم وحواء شيء إطلاقا ..

ومن ثم

فإن إخبار ربنا عن هذا الموقف العظيم الذي وقفة كل بني آدم أمام رب العزة ، فيقول سبحانه وتعالى لهم : ألست بربكم؟ فيجيب بنو ادم : بلى .. قال رب العزة : شهدنا .

ثم إنه سبحانه وتعالى حذرهم من الغفلة "أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" .

ثم حذرهم من إلقاء التهمة على ابائهم .

"أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون" الأعراف ١٧٢.

وقال كثير من علماء التفسير القرآنى عن هذا الموقف إن الله مسح على ظهر آدم فأخرج كل ذريته وركب لهم عقولا وأشهدهم على أنفسهم ؟

ولأن نص الآية ليس فيه "آدم" وإنما "بني آدم" .

ولأن التفسير لا يتفق مع الأدلة المادية في الحفريات البشرية قبل آدم بملايين السنين. وإذا كان العقل الإنساني بما جعل الله فيه من قدرة قاصر عن رؤية الفضل الإلهي .. فذلك مردود عليه في كل ما يتصل بالشهادة. أما الغيب فلله وحده سبحانه .

ومن ثم

فإن الآية تعنى بحق كما قال الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه أن كل ولد ادم قد

وجدوا في الحياة - الأولى - نسلا من نسل .

وهذا يعنى أن الله سبحانه قد أبقاهم أحياء حتى اكتمل عددهم فأحصاهم وعدهم عداً، وأخذ عليهم الميثاق السابق بيانه.

لقد خلقهم رب العزة نسلا من نسل - كما تقول بذلك الحفريات - وعلمهم ربهم البيان الذي جاء قوله تعالى "خلق الإنسان ، علمه البيان" الرحمن ٣ . ٤ .. علمهم خلق الكون وخلق كل ما خلق من شيء .. وعلمهم خلق البشر .. فعلموا أن الله أحد وأنه هو الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء .. وأنهم مبعوثون ليوم لا ريب فيه .. يحاسبون ويجازون ..

علمهم رب العالمين ذلك بالإلقاء في الصدور .. كماعلم آدم في الحياة الثانية علم الأسماء (الصناعة) بالإلقاء فى صدره .. وكما علم النبيين بالإلقاء في صدورهم وكما يعملم كل من لم يكن قد تعلم، كيف يقرأ كتابه في يوم الحساب "إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" الإسراء ١٤ .

علمهم رب العزة البيان .. بيان كل شيء وقدرتهم على التعبير عن أى شيء فصاروا لاثقين للإقرار بالألوهية الأحدية ويوم القيامة .

ولما كان هذا الموقف لم يحدث فى هذه الحياة الدنيا (أي الحياة الثانية الأقل زمنا من الأولى) . وإنما أنبأنا به القرآن العظيم بحدوثه من قبل . إذا فقد حدث من قبل هذه الحياة التى لم يكتمل فيا عدد الناس بعد..

وجاء بالسنة المطهرة أن هذا الموقف لبنى آدم جميعا أمام رب العالمين . كان عيانا ..

"إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدّهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا " مريم ٩٣ - ٩٥.

وأحصاهم وعدهم فعل ماضٍ .. أى قبل الحياة الدنيا.

لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة

ولنستحضر صورة ولد آدم جميعا .. ذكورا وإناثا .. وهم وقوف أمام الخالق العظيم .. لا يسترهم شيئ إلى جلود الحيوانات وفروها .. يتدثرون بها إخفاء لسوءاتهم ..

إنهم وقوف .. وقد علموا حقيقة خلقهم منذ البداية إلي ما هم فيه .. وعلموا وحدانية الله .. وأنه سبحانه خلقهم في البداية من تراب بمطلق القدرة الإلهية .. ثم جعلهم نسلا من نسل .. ثم جعلهم أسيادا لكل ما خلق من شيء على الأرض .. ثم هداهم إلى صراط الله المستقيم.

ورأفة من الله سبحانه ورحمة .

فقد فطرهم على الحق .. على المعرفة وعلى العلم وجعل يقينهم بالله الأحد واليوم الآخر بعض جبلتهم .

وجعلهم على يقين باستدعائهم فى غطاء في حياة ثانية قصيرة لا بتلائهم !!

وكان لزاما وقد أحصاهم الله وعدُّهم عدا .. أن يأخذ عليهم الموثق وهم واقفون صفا في خشوع .. والملائكة من فوقهم ومن حولهم يبتهلون إلى رب العالمين أن يكون استدعاؤهم في دار الابتلاء (الحياة الدنيا) على هدى ونور ورحمة .. فهو سبحانه الرحمن الرحيم الرءوف بعباده. والقرآن ذكر للعالمين .. والرسول صلى الله عليه وسلم مذكر «فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر» الغاشية .

فيذكرنا رب العالمين - ونحن في دار الابتلاء - بهذا الموقف الرهيب في موقف أشد منه رهبة وخوفاً وفرقاً .. عظيم القوة شديد الأخذ ..

"ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل ملكم موعدا" الكهف ٤٧، ٤٨.

فذلك يوم القيامة

يقف ولد آدم جميعا أمام خالقهم صفا .. مرة ثانية .

فيقول لهم ربّ العالمين :

"لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة"

نفس الموقف في يوم القيامة .. يعني كان هناك موقفان الأول في الحياة الأولى موقف العهد والمثاق .. ألست بربكم ؟ والثاني في يوم القيامة ..

"ولله الآخرة والأولى " النجم ٢٥.

أما الحياة الدنيا (الثانية) فهي حياة الاختبار للإنسان .. ليس فيه موقف .. بل هو يُمتحن فيما كان قد أقر به في الموقف الأول : الله ربنا، ويوم القيامة ... يُختبر بملء حريته.

ولأن الإنسان في هذه الحياة الثانية في حالة اختبار وامتحان، فإنه قد استدعى إليها في غطاء . فلا يرى إلا بحدود البصر فى الغطاء .. ولا يسمع إلا بحدود السمع في الغطاء .. فالغطاء هو الأمر اللازم لإجراء الاختبار ..

ولكن فإن فيه لطائف العقل والفؤاد والنهى ونور اليقين بالله .. يتفكر فيهتدي..

ولكن مع رسالات الرسل وتذكير النبيين رأفة من الله .. وحنان بهم ...

ولكن مع الهداية الدائمة من الله سبحانه لكل لمؤمن ..

"هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما" . الأحزاب ٤٣ .

فإذا خلع إنسان نفسه من جسده .. سياحة في أنوار كلمات الله تبارك وتعالي فكشف له ربه .. فذلك رد، تصديق ولايته "لهم البشري في الحياة الدنيا" يونس ٦٤ .

أما إذا انسلخ من كلمات الله .. فقد تاه في ضلالاته كالكلب نبيحا ..

"واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب .." الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦.

ويؤكد الله ربهم لهم حريتهم منذ رشدهم حتى مماتهم "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" الكهف ٢٥ .. ومع ذلك فهو رازقهم ليضمن لهم حريتهم "وما كان عطاء ربك محظورا " الإسراء ٢٠ .

ولكنه سبحانه يحذرهم بأن أخذه يوم القيامة أخذٌ شديدٌ ...

وحملها الإنسان

وقد نعود إلى حالة الأرض وهي كتلة نارية لا حدود لحجمها حتى في الخيال .. الدخان من حولها يسد آفاق الكون .. فلا وجود ولا رؤية لغيره ..

فإذا ما سكتت النار عن التوهج وتضاءلت ثم انطفأت وصارت صخورا تلظى .. فتمضي مليارات بالآلاف من السنين .. تطوى الأرض طيا .. فتتركها وقد صارت صلبة يتخللها ماء يغلى يشوبه بخار كثيف .

ثم تمضي ملايين السنين، وتمر الأحقاب الجيولوجية حقبا ومن بعده حقب حتي إذا وصلنا إلى حقب الحياة الحديث .. وخلق الله البشر .. وبدأ يعلمهم البيان .. شيئا فشيئا .. ومنهجا بعد منهج .. في كل عصر من عصور الحقب الحديث .. حتى إذا جاء العصر الثاني الأليجوسين .. وما زالت السماء دخانا كثيفا ثقيلا يطبق على وجه الأرض والشمس بازغة لا ترى من طياته ولا تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ منه إلا نورا خفيفا يجعل الظلمة فيها شيئا من نور ، يُبين ولا يُبين .. ويعطى للجو دفئا قليلا .. لا يحرق بشرة ولا يتركها لبرد يلم بها .. ويعيش البشر في كنف هذا الجو الرحيم .. يمشون .. مازالوا على أيديهم مع أرجلهم .. وإن كان رجعه قد بدأ يخف .. فالأيدى كثيرا ما تستعمل في حاجات البشر .. ولم تكن كذلك من قبل ثم إن المشى عليها صار في المناطق الوعرة .. و لكن في السهول كثيرا ما ترتفع الأيدى عن رباط الأرض .

ويرى البشر أن دخان السماء قد أخذ له مأخذا آخر .. فهاهو يُجدل في خيوط عريضة سميكة . وفي أحزمة تشد شدا قويا .. وكلما زاد جدله في الحبال وزاد شده . كلما زادت قوته ومتانته .. حتى صار البشر لأول مرة يرون الشمس من فتحات أحزمة السماء .. وصار للجو شكل آخر فقد زاد الضوء فزاد النور وزادت حرارة الجو وزاد نمو الشجر وارتفع بسيقانه وفروعه .. وزاد تعلق الإنسان بفروع الشجر وقطف الثمر .. والنوم والجلوس في الظلال.

وشيئا فشيئا يعتدل جزع الإنسان البشر ويستقيم ثم ينتصب .. ويأتي العصر الثالث الميوسين والرابع البليوسين ثم يدخل إلى العصر الخامس ويدخل في صعاب فترات تسوية مخه وأعصابه وقدرته على التفكر والعقل والاستنباط حتى يصل إلى أول الفترة بعد الدورة الجليدية الثالثة . ونجد أن بطل البشر هو آدم ...

لقد كان في الأرض أحداث جسام قبل ظهور آدم بطلا للبشر بملايين السنين فقد حدثت زلازل كاسحات حيث مُدّت الأرض وظهرت سلاسل الجبال ونصبها ربنا فنزل عليها المطر فشق لنفسه الأنهار .. وكانت الزراعات والأنعام التي ذللها العلي القدير للبشر الذي كان ما يزال في بداية اعتدال قامته ..

وكانت الأرض قد هيأت .

وكانت السماء قد رُفعت .

واستوى الرحمن على العرش ، وبإذنه سبحانه وبرحمته ورضوانه وباسمه المكنون المخزون نادت الملائكة من حول العرش :

من يحمل الأمانة !!؟

فيأخذ الكون .. أرضا وجبالا .. وسماء .. وملائكة .. يأخذ الكون أبعاضه نجيا .. ويأبون حملها .. ويشفقون منها ..

وينظر الإنسان ..

لقد خلقه ربه نفسا ولم يكن إلا الله وعرشه والماء [1] .

وخلق ربه العظيم الأرض المهولة .. وبنى السماء ثم رفعها وجعل الشمس ضياء وجعل القمر نورا .. وبعد أن كانا واقفين .. جعلهما في فلكين كل يجرى في فلكه .. فكان الليل وكان النهار .. وجعل كل ذلك بمنتهى الإحكام ... "لا الشمس ينبغى لها أن

(١) الفتوحات المكية لابن عربي - تراث الإنسانية - المجلد الأول / ١٧١ ، ١٧٢ .

تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " يس ٤٠.

وينظر الإنسان ...

فإذا كان قد خلق ضعيفا، فإن ذلك جعله طموحا .. وإن كان قد خلق متعثّرا إلا أنه خلق متفكرا .. وإن كان قد جعله الله سيدا للكائنات إلا أنه العبد المكرم عند الله الواحد القهار . وخلقت نفسه أزلا .. وها هو يدعوه ربه ليحيا بالأمانة أبدا ..

وإذاً فكل ما في الإنسان يناديه بأن يطلب الخلود في جنات رب العالمين .. وها هو يعرض عليه ربه حمل الأمانة ، فإن حملها كان له الخلود أبدا ... إذا فليحملها .. فأسرع فاختار أن يحمل الأمانة "إنه كان ظلوما جهولا" الأحزاب ٧٢ ، ظلوما لنفسه جهولا بالمشاق المقبلة ...

الفساد وسفك الدماء

وإذا كنت قد تمهلت في الفقرات السابقة وجئت فيها ببعض السوابق مع بعض اللواحق، فلأننا نريد أن نكون على قناعة "بالحكاية"

ولذلك لزم أن نعود معا إلى مسرح الحياة الأولى لنرى الأوائل من فصولها .

ولأن دليلنا الهادي إلى معرفة ما يدور على المسرح هو كلام الله ونوره في قرآنه العظيم . فإنه سبحانه أخبرنا عن الواقعات التى نوجه إليها هذا النور لنعرف فصول الحكاية؛ فقال سبحانه لنا أن نسير في الأرض أى نبحث عن الحفريات بين طيات الصخور التى تعطينا خطوات ومراحل خلق البشر وفي ذات الوقت جغرافية الأرض والمناخ وأحوال وأعمار الصخور .

ونذكر أنفسنا بأن حفريات البشر يلزم أن تعرف أساسا بالبشرة أى ذلك الذي يقال عنها جلد وليس بجلد الرقيق جدا .. كما أنه يلزم أن يكون للبشرية الحفرية مخا متوافق الحجم مع حجم الجسم .. ولا يلزم إطلاقا أن يكون معه أدوات .. لأنّه سبحانه خلقه في بدايته ويداه مربوطتان بالأرض ..

وهذه الحفريات بهذه المثابات جميعا رد ء تصديقها قوله تبارك وتعالى "الذي خلقك فسواك فعدلك " ..

وإذا فكان البشر في الخلق لأول مرة .. وكأنه حيوان .. لا فارق بينهما إلا البشرة والمخ القادر على التفكير وليس التفكر ولكن بقدر أكبر من تفكير المخلوقات وإن كان الإثنان في ظروف غير متساوية .. ذلك لاحتياج البشر أن يوفر – بقدر أكبر – لنفسه مأوى ودفئا وأمنا من دون المخلوقات الأخر جميعا .

والبشر في مجري سنن تلك الحياة لابد له أن يستقيم مع خلقه ، فلا بد أن يستعمل فمه وكأنهايد له ومخلب .. ولكنه ضعيف ليس له مخلب بحق في رجليه ولا ناب بحق في

فمه !! فليس له أسنان حداد قوية وليس له دروع أو جلد سميك يحميه من بطش الحيوان أو تقلبات الجو .. ومع كل هذا فهذه يداه كأنها قدمين أماميتين .. بل هما كذلك لملايين السنين !!

ومن هنا، فقد كانت الحاجة الشديدة فيه تفرض عليه أن يشدد أزره ببشر آخرين ويكونوا معا أنسا وقوة .. كما أن قدرته على التفكير دعته إلي هذا ليكونوا جماعة .. فإذا ما لجأوا إلى مأوى، كان لهم فيه دفء .. من زفيرهم فيذهب عن بشرتهم قشعريرة البرد وقشعريرة الخوف ... الاثنين معا ..

ولابد أن هذا المأوى الجماعي للذكور والإناث معا عرايا تماما .. كان يدعوهم إلى ممارسة الجنس بكثرة رغبة فيه بعد طول عناء في توفير الطعام ثم الاسترخاء وانفعالا بحرارة الدماء فى أجسادهم ..

ولا يكاد يخفي على المتأمل لهذه الصورة أن الذكر لايكتفي بأنثى واحدة وأن الأنثي قد لا تكتفي بذكر واحد .. فالأمر مفتوح على مصراعيه للرغبة والشهوة والفحولة وقوة السيطرة ..

وأكاد ألمح في تلك الصورة أن ثمة بشرا أقوياء الجسم وذات رغبة عارمة وأنهم يسطون على الإناث كلما دعتهم نزواتهم ، واستبدوا بقوة أجسادهم !!

وأكاد أرى أن ثمة صغارا وضعافا من البشر يضيعون في هذه البهيمية تحت بطش ونزوة الأقوياء التى تترنح الإناث تحتهم طلبا .. ورغبة .. وضعفا ..

وربما ترى معي أن الأمر لم يكن يخلو مع هذا الانفتاح الكامل من شذوذ !! وأن هذا وغيره يؤديان أو قد يؤدي أيهما إلى نشوب بعض المعارك التى سرعان ما يفضها الأقوياء ولو بسفك الدماء .

وقد استنتج من أطوار التسوية الكثيرة المتلاحقة ، أن الله العظيم أراد تحقيق ثلاثة أمور بالبشر فأولا تطوير الجسد إلى أن ينتصب معتدلا وثانيا تطوير السلوك البشري أن

يكون متحضرا وثالثا تطوير المخ حتى يقابل بضخامته صروف الحياة البشرية مع الكون الصعب الشديد العسير والمناخ والبيئة ..

ولا أشك أن التكوين الأول للجسد البشري لا يستطيع أن يلم بصورة أحسن ما صورنا آنفا .. بل قد يكون فيها الكثير أيضا من هبوط وشذوذ سواء في ممارسة الجنس .. والهيمنة بغير الحق .. ومن ثم وجود الكثير من الصراعات نتيجة فوضى السلوك وسفك الدماء ..

وإذا قلت سلوكا ، فذلك ترفٌ نتصوره ولابد أنه كان في أدنى حالاته أو هو يكون خوفا من بطش الأقوياء ...

إذاً فقد كان البشر يعيشون عُصبة في خوف من الحيوانات المفترسة ويعيشون معا في خضوع وطاعة للأقوياء فيهم .. وإن تمردوا عليهم كلما عَنَّ لهم ذلك. ولا شك أن هذا كله كان ضروريا لتشكيل المجتمعات البشرية في قابل الأيام أو هو أيضا فقد انعكس عليها .

ولا شك أن هذه المجتمعات البدائية جدا كانت على هذا النمط أوهى دونه .. حتى إذا كانت ثمة مجتمعات للبشر في هذه البداية البوهيمية الفاسدة نتيجة نمط حياة العري الجماعية في كل الأوقات وفي كل الأماكن ، فإن هذا كله أيضا وسمته الضعف الذي يربم على وجه البشر .. كان هو بذاته العامل لبدايات بذور الطموح البشري لحياة أفضل .. يدفع البشر إلى السعى الشاق بكافة صوره حتى يخرج من دركات هذا الفساد والقتال في سبيل النزوات ..

ولا بد لهؤلاء البشر في مدلول حياتهم – لو سميت حياتهم هذه بحياة – ملايين السنين على هذا النحو أن يكونوا هم الذين قال الله العلي فيهم :

"هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكور" الإنسان ١

إذا ، وقد حدث هذا جزما ويقينا ، فإنه كان في الحياة الأولى.

المخ الضخم

فلنعد معا بالذاكرة إلى بعض الفقرات السابقة التى بينا فيها أن تسلسل تطور الإنسان عند الماديين كان من "قرد الجنوب" الذي كان حجم مخه ٦٠٠سم٣ ثم إنسان الصين الذي كان حجم مخه ٩٠٠سم٣ ثم إنسان بلتادون الذي كان حجم مخه ١٣٥٠ سم٣ مثل الإنسان الحالي، ثم وأخيرا إنسان النياندرتال حفرية بهذا الوادي بدسلدورف في ألمانيا وحجم مخه ١٤٥٠ سم٣ ثم تبين وجود حفريات بذات حجم المخ بشمال الهند وبجهة الكوبانية عند مدينة أسوان بمصر وكان هذا أكبر حجم مخ لحفرية إنسان وهو الذي قابل الدورة الجليدية الرابعة وأهلكته تماما فلم يوجد بعد ذلك أثر لإنسان بحجم مخ مثل هذا الحجم.

ولعل البعض يتساءل عن السبب في الركون إلى حجم المخ كأكبر مؤشر لتحديد البشر من غيرهم .. والقردة على وجه أخص لاشتباه العلماء الماديين في أنهما نبتا من مخلوق واحد خرج منه فرع للقردة وفرع للبشريات !!

ولكي نوضح ذلك ونجيب على هذا التساؤل يجب أن نلقي نظرة على تشريح المخ بطريقة سهلة ومبسطة مع التركيز على بعض أجزائه ..

فالمخ في "الإنسان" يتكون من مخ يسكن كل فراغ الجمجمة وتحته من المؤخرة يوجد المخيخ . كما يتدلي من مؤخرة المخ النخاع الشوكي الذي ينزل في قناة داخل العمود الفقري .

والمخ ومعه المخيخ والنخاع الشوكي يطلق عليها جميعا اسم الجهاز العصبي المركزي وهو كله عبارة عن مادة رخوة هي النسيج العصبي الذي يتكون من الخلايا العصبية التى يخرج منها امتدادات تشبه الجذور تسمي الألياف الشبكية، كما أن كل خلية عصبية يخرج منها أيضا محور واحد فقط يسمي الألياف العصبية . وأن كلمة "الأعصاب" إن هي إلا حزمة من هذه الجذور (الألياف الشبكية) التي تكون أحيانا طويلة

بحيث تصل إلى أعضاء الحس بألياف العضلات فتنقل إلى المخ أحاسيس الحرارة والبرودة والألم والضوء والتذوق والشم وتنظم حركة العضلات. أما الألياف العصبية فأهميتها أن الومضات الكهربائية العصبية تمر فيها.

ونجد أن كل فصوص المخ الخاصة بالحواس الخمس (النظر والسمع واللمس والتذوق والشم) توجد على جانبي وسط المخ فيما عدا البصر ففي مؤخرة المخ من أسفل، والسمع فتحت وسط المخ تقريبا.

أما فصوص التفكير فهي أول شيء في المخ من الأمام يليها فصوص الذكاء .. الخ. كما يتصل الإفريز بعد المركزي في المخ بالأعصاب التى تحمل للمخ رسائل الحس الموجودة في جلدنا وعضلاتنا من تسجيل إحساسات اللمس والضغط والحرارة والبرودة. ولهذا يطلق علي هذا الجزء من المخ بالمنطقة الحسية التى تمتد إلى الخلف لتشمل عديدا من مناطق القشرة القريبة التي تتعلق بالأحاسيس الأكثر دقة والقدرة على التعرف الدقيق على ما يوضح باليد بدون النظر إليه، والجزء الثالث من الجهاز العصبي فهو الجزء العصبي الذاتي أو اللاإرادي الذي يُشغِّل بعض الأجهزة مثل المعدة والكلى والرئة [1] .

ومن هنا

يمكن لنا أن نعرف السبب في كبر حجم المخ الذي هو خلايا عصبية تتلقي كل الإحساسات من الخارج بواسطة البصر والسمع واللمس والذوق والشم والبرودة والحرارة والضغط والألم؛ فذلك راجع إلى تلك البيئة العذراء الموحشة التى عاشها الإنسان في تلك الحياة الأولى البدائية حيث كان بغير صناعة .. ومن ثم كان يعتمد اعتمادا كليا على بصره وسمعه وإحساساته ثم تفكره فيما رآه وسمعه وأحس به فيتصرف بالطريقة التى

(١) كتاب "جسم الإنسان" / ١٠٠ - ١٠٣ بإيجاز / د. عبد المنعم عبيد .

تتناسب مع الموقف ليحافظ على حياته أو يوفر طعامه ومأواه وحماية صغاره .. ومن ثم كان ذلك التفكر الكثير المرهق له مدعاة للانعكاس على خلايا مخه التى هي جماع أعصابه بطريقة مستمرة ومركزة في هذه البيئة المليئة بالوحوش والمناخ الشديد القسوة بل المميت القاتل لهذا الإنسان البشر العاري على مدى مئات الآلاف من السنين بلا هوادة مما جعل حجم مخه أى حجم أعصابه يزيد ١٠٠ سم٣ عن الإنسان الحالى ..

ولا شك أن تطور حجم المخ البشري دون غيره من المخلوقات يُعطى دليلا ماديا على عدم وجود صلة أى صلة للإنسان بغيره من المخلوقات، حيث كان الجميع في بيئة واحدة ، فلم يزد حجم مخ أىٍ منها .. كما يُثبت أن بشرة الإنسان التى ينفرد بها من دون المخلوقات، كانت هي العامل الأساسي التي دفعت الإنسان في إعمال فكره كثيرا ومن ثم إجهاد مخه أى جهازه العصبي المركزي والطرفي بل واللارادي طوال حياته حتي وصل إلى آفاق الفكر السامي الرفيع المستوي فآمن بالله عز وجل يقينا وحمل الأمانة وأعطى الله سبحانه الموثق بالربوبية ويوم القيامة ..

والإيمان بيوم القيامة يعنى العمل بالطاعة لله سبحانه دائما وأبدا حتى إذا بعث كان جديرا بالجزاء الأوفى المعلّى .

ويقول الخالق العظيم في بيان جهاز المعرفة وجهاز التفكر في الإنسان : "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التى في الصدور" الحج ٤٦.

ولأن هذه الآية الكريمة تبين أن أداة الفكر موجودة في القلب، ولأنه ليس ثمة شيء في جسم الإنسان يسمى عقل، كما أنه ليس ثمة شيء في الإنسان يدل على مكان "الفؤاد؛ وأن الآية الكريمة حددت مكان القلب الذي يفقه به الإنسان أنه "القلوب التى في الصدور".

فإن ذلك معناه أن "القلب" الذي هو في صدر الإنسان هو محل المعرفة والفقه (١)

(١)طبقا لقاعدة صريح النص في دلالة النص وهي القاعدة الأصولية اللغوية الأولى من قواعد أصول الفقه.

وأن الإنسان يعرف الأشياء ببصره وسمعه وحواسه التى حصلها فيرسلها صدره إلى قلبه فيعقلها أى يرتبها ويربط بينها وبين أسبابها ويتفكر فيها بفؤاده بالتأمل العميق ظاهرا وباطنا وأولا وآخرا ويستنبط منها الحقيقة ومن ثم يستخلص العلم فيها..

وإذا قلنا إن ذلك يتم بالخلايا العصبية في مقدمة المخ. فإنه قول يجافي مادية العمل في جسد الإنسان . فالمسلم به في علم الأجنة أن أول ما يخلق في الإنسان هو قلبه ثم بعد ذلك رأسه ثم أطرافه وحواشيه . ومن هنا يثبت أن القلب هو الذي يهيمن علي المخ أى كل الخلايا العصبية أى كل الجهاز العصبي . ويثبت ثانيا أن المخ لايعمل إلا بالمد الكثير من الدم وهذا لا يكون إلا من القلب .. إذا أعطاه القلب دما عمل وإذا لم يُعطه لا يعمل شيئا بل يفسد ويحدث الشلل !! .

ويبين رب العالمين ذلك في وصف حال قلب أم موسى عندما ألقت بطفلها موسى عليه السلام في اليم ؟!

"وأصبح فؤاد أم موسى فارغا، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين" القصص ١٠ .

فحزنها الكامل من فرط خوفها على غرق ابنها قطعا، جعل قلبها لا يرسل أية معلومات إلي فؤادها .. فصار فارغا ليس فيه شيء يستطيع أن يتأمله؛ وهنا فقد ربط ربنا برحمته على قلبها أى جعله في حالة ثابتة مطمئنة .. فذهب الحزن من بعد ذهاب الخوف .. فاستطاعت أن تتأمل قدرة الله العظيم فتعتصم بالله العظيم .. فتكون من المؤمنين ... وإذا فالفؤاد لطيفة ربانية داخل القلب .

"فإذا كان المخ بخلاياه العصبية يتصل بكل أجزاء الجسد ، فإن القلب هو الوحيد الذى يعطى المخ الدماء أى الغذاء وما فيه من ومضات كهربائية وأسرار ربانية .. فيكون الفقه إذا من القلب .. ولا ولن يستطيع إنسان أن يعرف تفاصيل هذا .. ذلك بأن السمع والبصر والفؤاد (جماع المعرفة والفقه) من أعمال القلب ومحلها القلب وليست من أعمال الخلايا العصبية التى هي الجهاز العصبي بأى حال من الأحوال.

بل إن هذا الجهاز العصبى المركزي والطرفي والذاتي هو المحصل للمعرفة من الحواس جميعا .. والمحصل ليس هو المتفكر لأن الخلايا العصبية ليست مؤهلة بتركيبها للتفكرفي أى شيء . كما أن القلب كأقوى عضلة فى الجسم ليس فيه جهاز للتفكر ولا للبصر ولا للفؤاد ... ولكنها جميعا لطائف ربانية وأسرار في قلب الإنسان .

ولأن الخلق للخالق فلا نؤمن إلا بما يقول ولا نصدق ماديات ليس لهاتأهيل لأى شيء سوى تلقي الإحساس دون الانفعال بها. بل إن كل إنسان يبصر في نفسه سيجد أن الذي يتأثر بالإحساسات كلها وبما يراه ويسمعه إنما في انعكاسه علي نبض قلبه وصورة حية في قسمات وجهه : وهو برهان أكبر لقول ربنا . وصدق الله العظيم.

البشر والجليد

في حقب الحياة الحديث؛ الذي ظهر الإنسان في أول عصوره الأيوسين في حجم قطة ا منذ خمس وسبعين مليون سنة وقد يزيد واستمرت تسويته على مدى هذا الزمان الطويل .. الطويل .

فإن البشر أول البشر عند العلماء الماديين وهو الإنسان الذي وجدت حفريته الأولى في الصين تسمى بإنسان الصين ثم وجدت مثيلتها في هيدلبرج بألمانيا وكان حجم المخ ٩٠٠سم٣ .. وهذا يعنى انتشار هذا الإنسان في الأرض .. في العصر الرابع البليوسين.

فإننا نجد أن جنوح المناخ في نهاية عصر البلستوسين الخامس إلى البرد ثم بداية أول دورة جليدية .. قد أدى إلى زيادة حجم مخ الإنسان الذي وجد من ٢٥٠ ألف سنة قبل الآن كان حجم مخه قد وصل إلى ١٣٥٠ سم٣ (مثل الإنسان الحالى) وهذا يعنى أنه كان أثناء ووقت الدورة الجليدية الثانية أى أن الزمان بينه وبين إنسان الصين كان من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ألف سنة فقط !! فانظر كم هي ضخامة التطور في حجم مخ الإنسان .. وبالتالى حجم الرأس ومعها حجم الجسم كله ي هذا الزمن القصير نسبيا بالنسبة لأزمان العصور الجيولوجية التي مرت بالبشر منذ الأيوسين أى منذ ٧٥ مليون سنة !!

فذلك ولا شك يعطينا دليلا أكيدا على أن الإنسان البشر عندما وصل حجم مخه ٩٠٠سم٣ ثم بدأت تداهمه البرودة فالصقيع فالجليد، إنما أعمل فكره كثيرا ليوفر لبيته أسباب تدفئة دمه بوصفه من ذوي الدم الحار ليبقى علي قيد الحياة.

وإذا كانا نتصور ذلك؛ فيجب أن يكون مع هذا التصور طول الزمن الذي تقطعه كل دورة جليدية. فهي ليست عدة شهور .. أو عدة سنوات .. ولكنها آلاف السنين جليدا باستمرار ..

أى أن الإنسان البشر كان يقدح زناد فكره طوال حياته ، قصرت أو طالت، ليجد

الوسائل التى تدفئه هو وأسرته في مأواه وفي الخارج !! ثم يعمل على زيادة هذه الوسائل والترقي بها .. ثم يحاول أن يجعل هذه الوسائل دائمة ليلا ونهارا .. وإلى الأبد .. لأنه طوال حياته المحدودة لا يستطيع أن يرى للجليد نهاية.

والتدفئة ليست للبحث عن وقود من خشب الشجر وإشعاله وهكذا دواليك ..

ولكن؟ تصور الارتباك الهائل الذى أحاط بالبشر عندماهجم الجليد على الأرض فغطاها، ودفن الأشجار فسواها ... ثم مدى الشدة التى صاحبت هذا .. فماذا يعمل ؟ وكيف يجد الدفء ؟ وأنه إنما حاول أن يبعد الجليد عن الشجر ليستخلص الأخشاب وكم تعاون البشر في ذلك معا ... وربما عادوا إلى ما كانوا عليه في البداية أى الحياة معاً في مآوي جماعية ... ؟ ولعله في هذه المجتمعات الدائمة قد فكر فيما يفعله بالنسبة لهذا المأوى .. كيف يكون شكله وحوائطه وأبوابه ونوافذه ؟ ولعلهم فكروا أيضا في الملابس التى تعطيهم السخونة لأجسادهم عندمايخرجون يشقون الجليد للبحث واستخلاص الأخشاب المدفونة تحت الجليد .. فليس ما يمكن أن نسميه بترولا أو فحما فذلك ترف كبير ليس له بالقطع وجود في تلك الأيام الخالية .

ولا بد أن البشر قد شعروا بالجوع من شدة البرد وقرصة الصقيع؛ فتباحثوا في أي الأطعمة تعطيم الدفء ووهبوا أنفسهم للصيد في تلك الثلاجة الهائلة الحجم الهائلة الامتداد .. ولابد أنهم كانوا يقاسون الأمرين في صيدهم وجريهم وراء الصيد ثم عودتهم به.. وحتما اتخذوا لأنفسهم نعالا ذات مواصفات .. متينة جدا وعاملة على صد الجليد عن أقدامهم بما فيها من فراء .. أو صوف .. ومن المحتم أن هذه الحياة الجماعية كانت غير محتملة أو شديدة البغض عند بعضهم .. أو كريهة أو سعداء بها .. فلا يمكن أن يكونوا جميعا على وتيرة واحدة في الفكر أو الرغبة أو الهدف .

وكما أن هذه المجتمعات .. كان أهم مناطق جدلها ثم فكرها في أسباب حياتها ومقاومة ذلك المناخ الجليدي .. فإنه لابد أن يكون من بين هؤلاء البشر وقد تحررت أيديهم وانتصبت قاماتهم. ورفعوا رءوسهم وشاهدوا ببصيرتهم قبة السماء وفيها النجوم

لامعات في ظلمات الليل .. وشاهدوا القمر دوارا لا يفتر والشمس نهارا بازغة لا تريم ..فلا بد أن يكون بعض هؤلاء البشر قد فكر في هذا الكون وأحوال أجرامه .. قد فكروا في هذا البيان الواقعي لأحوال سمائه .. قد فكروا في هذه الجبال التى كانت قاماتها صلدة مهيبة ثم صارت بيضاء مشيبة وهذه البحار التى كانت تضطرب بسيال الموج زرقاء بيضاء نهارا سوداء هوجاء ليلا.. تخيف من فيها وتردع من يرنو إليها ... لابد أن بعض البشر قد فكر فيما كانت عليه ثم ما أصبح البشر فيه .. ثم فكروا في قدرتهم وقدرة الأرض والسماء عليهم .. لابد أنهم بهذه الدروس البيانية الحانية والقاسية والدانية والقاصية .. لابد أنهم قد صاروا في ملاطم فكرية .. وربما نشبت المعارك الصاخبة في الكلام .. وقد تكون قد انهارت بهم بعد ملام إلى اشتباكات يدوية ولكمات باليد والأرجل ثم بالأدوات فإذا هم في فساد وسفك دماء .. ولا شك أن الأمور بهذه الترهات تودي بغيرهم من البشر أن يكون أحسن رئياً وأن يكونوا أفضل فكراً وأوسع بصيرة وأسمى نظراً ..

وهاهي الأرض والبحر جميعا صحراء جليدية وها هي الجبال شماء عالية قبابا من الجليد .. ولا شيء أمام البشر وتحت أرجل البشر إلا الجليد .. الصقيع .. الحياة الصعبة الشديدة .. والموت كنهاية حتمية .

إذا لابد من إعمال الفكر المستمر والمستنير والمنتج لما يحمي الحياة ولابد من تنفيذ ما يستقر عليه الرأى بالعمل والمثابرة عليه والصبر فيه .

فكان الفكر والعمل معا هما سبب التطور للبشر في ذواتهم وفي حياتهم .. وكان ذلك الجليد المستمر لما يقرب من حوالي مليون سنة هو أصعب ابتلاء للبشر ..

وهو الذي فاز فيه آدم وذريته حيث كانوا هم وحدهم من تبقي من البشر بعد الدورة الجليدية الثالثة ...

إن هذه الحقبة الجليدية علمت البشر الفكر

البشر .. والشجر .. والحرية

يجب أن نعود إلي أيدي البشر ...

فالبشر بغير يدين لا يستطيع إلا أن يكون مثل الحيوان مهما فكَّر وقدَّر؛ ذلك بأن القوة العاملة في البشر هي في قدرته على التفكر مع قدرته علي تنفيذ ما تفكر فيه ..

والقلب ولطائفه فيه وظيفتهم التفكر ..

واليد وظيفتها التنفيذ ..

وكلمة "يد" لغةً من مادة الأيد أى القوة؛ وأُطلقت على الساعد والعضد والكف كناية للدلالة على جُمَّاع القوة المادية في الإنسان .

ومن ثم؛ كان لابد للبشر أن تتحرر يداه قبل أن يداهمه الجليد .. وقد رأينا أن ذلك كان قد تم فعلاً في العصر الرابع البيلوسين من حقب الحياة الحديث .. وربما في نهايات الميوسين ويديه قدمين أماميتين، فقد ظل تطويره تسوية له ليحرر يداه طوال عشرات الملايين من السنين .. ؟ طوال ثلاثة عصور جيولوجية ، حتى استطاع أن يمشي على ساقيه .. ويصير إنسانا منتصب القامة !! .

ولم تكن هذه التسوية لتحرير اليدين منفردة بالبشر .. بل كانت التسوية لفكر الإنسان المنعكسة في حجم مخه تسير سيراً حثيثاً ومتساويا ومتوازنا ومتزامنا أيضا لتسويته في تحرير يديه.

وإذاً؛ فتحرير اليدين .. كان الأمر الأهم والأخطر والأصعب الذي احتاج كل هذه الملايين من السنين والظروف الجيولوجية والجوية والجغرافية والحياتية والاجتماعية والبيئية . حتى يمكن أن يقوم البشر على رجلين اثنين فقط .. وتنطلق يداه للحياة في نور فكره المتوهج .. فالفكر هو القائد الحقيقي للبشر ..

وإذا فانفلات البشر من هيئتهم المماثلة للحيوان .. قد أخرجتهم إلى نور الإنسانية

.. ومراقيها .

والحفريات دلت على أن البشر كان في البداية يقطف الثمار من الأشجار بفمه . فهو في هيئته الأولى التى خلقه الله عز وجل عليها ، ليس له ما يُمسك به الأشياء إلا فمه؛ فكان ذلك داعيا إلى أن يمتد فكي الفم إلى الأمام مثل ما نرى في بعض الحيوانات.

فلما مرت به العصور الجيولوجية وكبر حجم جسده مع حجم مخه .. وصار له عقلا يربط به الأسباب مع المسببات ويتطلع إلي نتائج من وراء ذلك تخدم أغراضه في تلك الحياة .

فإنه لما رأى الذئاب والكلاب المفترسة تنزل به الكوارث وتلتهم منه أعدادا في كل وقت، فقد فكر في الهرب منها .. وجد أن خير وسيلة للهروب هي أن يعتلي الأشجار .. فإنه سيكون عاليا عن شرورهم في مأمن على حياته وحياة أولاده وصغاره، ومن ثم فقد تسلل وتسلق تلك الأشجار العالية ولم يكن له شيء يستعمله في تلك الوسيلة التسلقية غير فمه ومعه يديه اللتين هما قدميه الأماميتين .. ثم بعد ذلك فهو محتاج إلي التنقل بين الأشجار لاختيار عش ومأوى ولقطف الثمار... فازداد استعماله لهاتين القدمين الأماميتين وما لبث بعد الاف السنين .. بعد ملايين السنين .. أن صارت القدمان الأماميتان يدين قويتين لا يقف عليهما .. ولكن يستعملهما في التعلق بالأشجار والتنقل بين الأشجار وقطف الثمار وحملها إلى ولده وأهله .. ومن ثم صار معتدل القامة منتصب الجذع ..

ذلك بأن الفقرة في نهاية العمود الفقري فوق الحوض مباشرة قد أخذت تتحول من فقرة أفقية مستطيلة مستديرة متجهة من أمام إلى خلف؛ إلى فقرة مستديرة مفلطحة رأسية متجهة من فوق إلى تحت؛ فاعتدل العمود الفقرى، فاعتدلت القامة.

« الذي خلقك فسواك فعدلك » الانفطار ٧ .

ومن ثم نرى أن البشر قد تحررت يداه في ذات الوقت الذي اعتدلت فيه قامته ..

ولوجود اليدين ؛ فلم يعد للذيل حاجة فضمر حتى اختفى .

وهكذا نرى أن مطاردة الذئاب والكلاب المفترسة للبشر لم تكن نقمة ... بل كانت النعمة الكبرى . فلقد أخذ شكل الإنسان يتغير شيئا فشيئا حتى لم يعد ينقصه إلا عظمة التنكر حتى يعمل بيديه أسباب المدنية التى تؤهله لسيادة كل الكائنات وتؤهله لاستعمار الأرض .. حتى إذا جاءت الدورات الجليدية لتشحذ فكره وتثرى همته للعمل والاكتشاف لمقابلة أضخم أعداء الحياة .. الجليد الدائم ليلا ونهارا على مدى مليون سنة وزيادة ، وقد تحررت يداه من الأرض، وبعد أن كان منكفئا على وجهه، ارتفعت رأسه إلى وفق مع اعتدال جذعه وانتصاب قامته، وصارت يداه بمرور الوقت ذات عضل فقوة ، بل ونبت ليديه عضلات في صدره وظهره .. وصار هذا البشر الذي خلق في أقل شيء .. إنسانا سويا ذا قوة عضلية في جسمه وفي يديه بالذات وقوة فكرية انعكست فظهرت في كبر حجم رأسه التى بداخلها مخه وجماع عصبه مع ظهره .. فإذا تذكرنا أن البشركانوا يمشون في حلهم وترحالهم والجري وراء صيدهم وقطع الأشجار والجري من الوحوش؛ والجري خلف الوحوش للإيقاع بها كذلك، وصعود التلال والجبال وتسلق الأشجار وشحذ السكين وقطع الحجر وتكوين المأوى والدفاع عن النفس وعن الأسرة .. كل ذلك بالساعدين والقدمين .. لا ثالث لهما ... وهم في بيئة نظيفة صحية وماء طهور وثمار طازجة .. وخلود النفس من غشيان ردىء الفكروهموم القلب .. لو قدرنا كل أولئك لأمكننا ن نتصوركم كانت هي الصحة السليمة والجسد القوي جدا لكل واحد من البشر ...

نتخيل معي كم القوة العضلية والنفسية للبشر في ذينك العصرين البليوسين وأوائل البلستوسين .. كانت قوة لا نظير لها الآن إلا في فحول أبطال الرياضة ألعاب القوى .. بل إن البشر كانوا في تلك العصور الجيولوجية البعيدة أكبر قوة وأعظم عضلاً.

ولعل هذه القوة البدنية

قد ألهبت مشاعر البشر.. فنظرت إلى الأنعام ... فأوحى الله عز وجل أن تذل للبشر، فذللها البشر ، ولعل ذلك قد جعل للبشرمُتسقراً لمراعيها وشرب لبنها وأكل

لحمها وركوبها .. فتكونت بذلك ولذلك الأسر المتجاورة للتعاون في المرعى والزراعة والحياة فتكونت المجتمعات .. وتبودلت الأفكار وانسجمت الرؤى في بيئة شاسعة واسعة رغدة فياضة بكل الخيرات .. ونشأت معاني الحرية في نفوس البشر .. فبعد فراغ أشبه بحرية بغير قاع .. فقد صارمع وجود المجتمعات .. المعاني التى تبرز أوجه الحرية وحدودها .. فالشيء يعرف بأضداده ...

وكانت يد الرحمة و الحنان الإلهي مؤاتية للبشر منذ خلقه ربه في عصر الأيوسين حتي ذلك العصر الرابع البيلوسين حين تحررت يداه من رسف الأرض وموغلات الطين ومعه فمه لا فرق بينه وبين أى حيوان في قطف الثمار أو مهاجمة لفريسة .. فبصره وسمعه وهو في ذلك الخلق المتدني مشدود إلى الأرض أو تحت قدميه مكبا بوجهه خالدا إلى التراب والطين ؛ لايدري من أمر الأفق شيئا إلا أن يمشي هاربا ممن هو أضخم منه وأقوى .. أو باحثا عن شيء يقتاته أو ساريا بالليل والنهار مع جماعة من البشر إلى مـأوى ...

لم يكن للبشر مع ما هو فوق أدني فكر إلا في تل يصعد إليه مذعوراً أو شجرة يتسلقها ملهوفا هربا ..

لقد كان البشر خالداً إلى الأرض بكلتا يديه ورجليه ورأسه وكل غرائزه، ليس له مع غيرها شأن ولا في غيرها فكر، فهو منها وهو فيها وهو عليها .. لا شيء سوى الأرض ..

فلما صعد هربا من أسلاف الذئاب والكلاب إلى عالي الشجر .. يحيا فوقها .. صار ينظر إلي الأرض من علٍ .. وصار فكره يروح ويجيء فيما كان فيه ثم ما صار إليه .. ليس في هذه الحالة عماية .. ولكن بالارتفاع عن الأرض في حماية . وبدأ فكره يرتفع من تحت قدميه .. من الأرض .. إلى سامق الشجر إلى فروع الشجر .. إلى فوق الشجر .. ثم ينظر بعين الاحتراس والاحتراز إلى تحت حيث يوجد الخطر ..

فصار للبشر .. لفكر البشر .. أرض وسماء هي قمة الشجر وصار لكل شيء عنده تحت وفوق .. ثم بداية ونهاية .. وصار ذلك له عقل له ربط ، فربط بين تحت .. الأرض

وبين فوق .. الشجر ...

وابتدأ البشر يتعلم السبب .. فالهروب من أن يكون فريسة .. كان السبب في تسلق الشجر .. للنجاه بحياته .. فعرف الغرض ..

وبدأ للبشر أن يكون لهم عقل .. كما بدأ للبشر أن تتحول أقدامهم الأمامية إلى أيدي ..

لم يكن ذلك إذا سهلاً ولا بسيطاً ولا سريعاً .

ولكن يد العناية الإلهية التى جعلت "كن" تستغرق أزماناً لا يعلمها إلا الله عز وجل : وجعلت "فيكون" في مليارات السنين، وطول آماد؛ لتسرع مع البشر في تكوين أهم دخائل نفسه .. لطائف قلبه .. وصدره .. حتى إذا ما تركته مع مهولات الجليد القادمة .. لا يقف حيرانَ لا قبل له بشيء فيصير جماداً مثلجا .. كلا .. إن الله هو الرحمن الرحيم .. الرءوف بعباده ..

« ... وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ؛ قليلا ما تشكرون» السجدة ٩ .

الأرض ... والسماء
مسرح الحكاية

أحب أن أعود مرة ومرات إلى الأرض !!

لأرى حالتها وما هي فيه ... ولأري معها أيضا سقفها .. تلك السماء الغريبة الشأن .. هل هي باقية دخانا كثيفا كما كانت .. ملتفاً حول الأرض مطبقاً عليهاملاصقا لها .. أم كانت السماء بعيداً عن الأرض ترنو إليها من علٍ !؟ .

وكأنى واقف علي الأرض .. والسماء دخاناً يلامس عاليَ الشجر .. وقمم التلال؛ وقد يتدلى فيلامس عالي الهضاب .. أو يهبط في الوادي وكأنه تراب وانتثر ..

والسماء التى أراها تكاد تكون في طور البناء .. وأحزمة من النوى المتأين المجدول الشديد القُوى .. بعيدا أراها من فوق الرُّبى على مرمى البصر ..

وأري المراعى ولفائف الشجر في بسطة ويسر وكثيرة تتلاعب عليها الثدييات الكثيرة .. تكاد تفر منهم مذعوراً .. أو تأنس إليهم مبهوراً .. ليس في مكربة .. وإنما هم في لعب .. كرٌ وفر !! فالأمن سائد .. والجو رطب والشجر سامق وفير الثمر ..

لا ترى شمسا ولا حروراً .. ولا تحس ضحى ولا زمهريرا

فكأن السماء تحجب الشمس .. كما هى تحجب القمر ..

وأكاد ألمس حنان الرحيم الحنان بالبشر .. ذلك المخلوق وليس له من غطاء !! يحميه أو يدفء الجسد ! فجعل ضوء الشمس شعاعاً في غير نار ومُنكسر .. حتى لا يحترق ويؤنسه شكل القمر .. من وحشة جاء إليها .. لا يدري من أمرها شيئا أحدٌ من البشر ..

وأكاد أمل الوقفة من طولها وطول النظر ... ملايين ملايين السنين .. أربعين

مليونا .. أو تزيد .. والأرض يتغشاها العشب ويملأها الشجر ..

وتمر ملايين آخر من السنين .. ويتباعد الزمان .... وتبدأ السماء ، وقد تم بناؤها .. تأخذ معراجا بقوة عظيمة وبغير ما أثر !! «والسماء رفعها» .

والأرض مع السماء في بدايات العصر الثالث الميوسين .. ونحن على مقربة من بداية جري الشمس خلف القمر .. تريد أن تدركه ولا ينبغي لأمر قد قدر ..

وتكاد الأرض تهتز .. بل هي تضطرب .. ثم تؤوب إلى سكون .. وإذا بشعاع الشمس واضحاً .. ويوجد الظل تحت لفائف وأغصان الشجر .. فإذا سجى الليل ظهرت في قبة السماء مصابيح النور .. وأطل القمر ..

« وإلى السماء كيف رفعت » الغاشية [1] .

ويجري فوق الأرض .. وتحت السماء .. ريح معطرة بأريج الريحان وحلو الثمر ..

إن ثمة هدوء للأرض .. قد يستطيل .. يظن الخلق أنه ملايين من السنين أخر .. فيزداد نشاط الثدييات في الأرض، وقمم الجبال والشجر !! ولكنه بدا أنه نشاط غريب بل مريب .. ليس عن رغبة فيه ولكنه في رهبة وذعر .. فالأرض بدأت تميد من تحت المخلوقات ومن تحت أقدام البشر .. واهتزت الأشجار بعنف .. بعنف وتنشق الصخور ويفر البشر .. وتتلوى الفجاج .. وتزيد الشقوق وتتسع فتأخذ فيها ما كان عليها .. وعلى جوانب الحجر ...

وتظهر المعالم .. وتضيع المعالم .. وتصعد الشواهق .. وتلتئم صخوراً سلاسل عاليات شاهقات تسد الافاق وتحجب البصر ..

لقد زمَّت الجبال الأرض زما . وضمت الوديان ضما .. وفجأة توقف الزلزال الشديد

(١) بدأت الآيات بقول الله تعالى «أفلا ينظرون» وفي كل اية بعدها تبدأ بحرف الجر «إلى» . وإذا دخلت على ينظر حرف جر يعني إذا تعدت بحرف الجر أفادت الرؤية بالباصرة، وهذا يقطع برؤية البشر وهم أجساد حية كل أطوار بناء ورفع السماء.

.. وانكدر .. لا يعود إلا لماما .. أياماً .. ساعات حتى آب إلى هدوء .. ثم فتر واندثر .. "وإلى الجبال كيف نصبت" الغاشية ١٩ .

وإذا جاء المغرب .. وأمرت الشمس أن تأخذ الفلك .. فذهبت تجري ، وكان لها مع قمم الجبال سلاما كأنه لهيب ... نار ... أو أحرٌ .. أو شرر ..

صارت ثمة طبيعة للأرض مع السماء الذي كان قد عرج وارتفع وأهم ما في السماء .. نهاراً شمس بازغة ثم تغيب .. يتلوها قمر .. ثم يأفل حبيبا ليعود وما تأخر .. "الشمس والقمر بحسبان" الرحمن ٥ .

اكتملت الطبيعة .. لها سماتها ونظامها وجمالها وهيبتها وبهاؤها ... فقد سكنت الأرض على سلاسل الجبال الشاهقة .. وهطل عليها المطر .. فنزل من عليها .. يجري إلى تحت في قنوات ثم في نهر .. تشق الوديان وتسقي العطشان .. وتروي الزرع والضرع والشجر .

«وإلى الأرض كيف سطحت » الغاشية ٢٠ .

وبين الفينة والأخرى تتكون المزن الثقال ثم تصب ودقا كجلمود صخر .. في حبات مليئة من الجليد والمطر ..

كان ذلك في نهايات العصر الثالث الميوسين من حقب الحياة الحديث سويت فيه الأرض في نظم بديع بعد أن ارتفعت فيه السماء في نجم يطل كقصر من شرر ...

«الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخَّر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يُفصِّلُ الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون» الرعد ٢ .

كانت الأرض قد تمزقت .. ليس إلى تلف .. ولكن إلى شيء يأتلف ، فأخذت بساطها اليابس .. قسما كبيرا منه .. إلى ظهر الكرة الأرضية بعيدا ... بعيدا عما كانت ملتصقة فيها بجانب من أفريقيا ومن أوروبا فانفتح البحر المتوسط واتسع .. وصار بين

أوروبا وأفريقيا .. وما انفصل عنهما ومنهما محيطا مهولا في الغرب ومحيطامهولا في الشرق .. فكان دنيا جديدة أسماها الناس منذ مئات من السنين حين اكتشفوا موقعها ظنا منهم أنه منذ عشرات الآلاف من السنين فقط قد انفصلت.

ويقول العزيز الجبار سبحانه

«وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً .. » الرعد ٣ .

فأثبت سبحانه أن مدَّ الأرض لثاني مرة كان بين حقب الحياة الوسطى في العصر الثالث الميوسين من حقب الحياة الحديث .. وكذبَ الناسُ . وصدق الله العظيم رب الناس ملك الناس إله الناس .

وتمت تسوية البشر في ذلك العصر المهول الأحداث، ودخل البشر على العصر الرابع البيلوسين معتدل القامة حر اليدين رأسه بين منكبيه "ذلل الله العظيم له الإبل والنعم وعلمه الزراعة ووضعه في حال الاستقرار وجعله يتفكر في حياته وفيما يراه في الافاق .. رفع رأسه إلى السماء .. يتفكر في رب الأرض والسماء . وكان من قبل ؛ من ينظر إليه يحسب أنه قُبر ..

ويقول الله الرءوف الرحيم لعباده وخلقه أجمعين :

« أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلا وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم» النازعات ٢٧ - ٣٢ .

وتشهد الأرض بصخورها وجبالها وأنهارها بالصدق للقرآن العظيم ... وتشهد حفائر البشر .. كما تشهد حفائر الأنعام .. وكُتب الجيولوجيا والجغرافيا وكل علماء الحجر .. أن مدَّ الأرض وإخراج سلاسل جبال الهيمالايا والأنديز والألب .. وأن وجود الأنهار والمراعي والأنعام .. وأن اعتدال قامة الإنسان .. كل أولئك كان في العصر الثالث الميوسين وأول الرابع البيلوسين .. كما جاء في نصوص آيات القرآن كلام الله العزيز

العليم [1] .

فانظر ياأخى في الله ... واعتبر ...

وقد يتذكر أحدنا أن يسأل : وقد كانت البداية نارا إثر انشطار نوى الأيدروجين .. أو انفجار اليضة الكونية وضجتها الكبرى .. وهذه وتلك بالتسلسل التدريجي لتفاعلهما لا يتأتى عن أيهماماء .. ولا أكسجين ..!

فمن أين جاء الماء .. وتلك حقيقة مادية مشهورة وكبرى؟

والسؤال سؤال عظيم حتماً .. وعدم الإجابة عليه تعلن في فضيحة مُدوية فشل هذه النظرية وتلك الفرقعة الكبرى .. فشلا نظريا وماديا ... ذريعا ..

وأى إنسان لديه ذرة من الاحترام للنفس، لا بد له أن ينأى بنفسه عن تلك الضجة الكبرى والفضيحة الهائلة ويؤوب إلى الحق .. ولا يعمد - غافلا كان أو جاهلا - إلى تطويع كلام الله عز وجل في إثبات صحة البيضة الكونية بآية لا صلة لها بالبيض ولكن معناها تفتق السماء عن المطر ، وتفتق الأرض عن الزرع في إجابة لابن عباس رضي الله عنهما .. وكيف كانتا رتقا والبيضة ليست رتقا .. ومن أين الماء قد أتى ؟!

ويقول ربنا عز وجل :

«ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة، ومنهاتأكلون» المؤمنون ١٧ - ١٩ .

وإذا كان هذا "الماء" قد أنزله ربنا سبحانه .. فهو الخالق للماء والخالق للأرض وخالق السماء .. فالقول صدق يقين ودليله «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر» القمر ١٩، نصرا لنوح عليه السلام ؛ ونترك أولئك الذين يفترون على الله الكذب أو يتوبوا إليه عسى أن يعفو ، إنه هو الغفور الرحيم .

---

(١) كتاب "الچيولوچيا" د. حسن صادق، ١٩٦ .
وكتابه "قصة السماوات والأرض" ، ٩٤ .

من البداية .... بشر

ما كنت أرغب في العودة إلى الثدييات، بعد أن دخلنا في كل ما يتصل بالبشر ..

إلا أن ثمة نقطة مهمة جدا تشير إليها بقوة عوامل التطور العامة، مربوطة بوثاق زمني واحد بين البشر وغيرهم من الثدييات وعلي وجه أخص فصيلة القردة .. وذلك حتى نقطع دابر التفكير الساذج الذي غفل به العلماء عن حقيقة البشر وحقيقة القردة العليا بالذات ...

فالحفريات التي يُشير إليها رب العالمين بيانا على تطور الخلق بإطلاق ، تقف بالقردة في العصر الثاني الأليجوسين . وكذلك على وجه قد يكون محتملاً .. أن البشر كانوا في ذلك العصرمازالوا يمشون على أرجلهم مع أيديهم ... ومن ثم فإن القردة في هيئتهم العامة، تختلط - لدى هؤلاء العلماء الماديين - في ذلك العصر بالإنسان لغفلتهم عن البشرة .!! .

ولأن البشر الذي وجد بعد ذلك بعصرين أي فى عصر البيلوسين الرابع من الحقب الحديث .. كان قد تطور .. فتحررت يداه من الأرض وانتصبت قامته واعتدلت رأسه بين منكبيه، وضمر ذيله وصار فقرات عصعصية لا مظهر لها .. وكبر حجم مخه فصار ٦٠٠ سم٣ .

هذا البشر .. الذى كان من قبل في هيئة متدنية . فقد صار في ظروف التطور مناخية وبيئية والعصور الجيولوجية .. قد صعد درجات كثيرة .. فانتقل من هيئة الحيوان إلى هيئة الإنسان .. وحجم أكبر للمخ والجسم معا..

فماذا عن القردة ..؟

لم يحدث لهم شئ سوى زيادة في حجم أجسامهم .. ومن ثم في حجم أمخاخهم .. وظلوا يمشون على أربع وظلوا ولهم ذيول .. كما أن حجم أمخاخهم لم يتعد حجم أمخاخ الحيوانات من أمثالهم في حجم الجسد .. ولكن قليلا جدا عن البشر ..

وظلت هيئتهم العامة كما هى . لم تتغير . لون واحد وشكل واحد ، وذيولهم كما

هي.

بل إن القردة في خلال العصر الخامس البلستوسين والدورات الجليدية الأربعة ظلت - حتى الفصيلة العليا للقردة - على ما هي عليه : لم يحدث فيهاتطور إلى أعلا !؟

فإذا التفتنا إلى البشر ..

وجدنا هذا الترقي المذهل في حجم المخ، وهذا الترقي في الهيئة البشرية حتى صار الإنسان في الدورة الجليدية الثالثة وقد بلغ حجم مخه ١٤٥٠ سم٣ أى أكبر من حجم مخ الإنسان الحالي .. وفي هيئة سوية وفي أحسن صورة.

في حين ظل القردة في ذات هيئتهم وحجم مخ أعلاهم فصيلة لا يزيد عن ٥٠٠ سم٣ وجلده وشعره في زيادة .. وظل وسيظل يمشي على أربع .. وإن استطاع أن يقف على قدميه الخلفيتين فلوجه من أوجه اللعب ، وليس كأصل له أو تطور إليه ..

وليس للعلماء الماديين بعد هذه النتائج المادية ، أن يربطوا بين البشر وبين القردة أو أى من الكائنات في أية لحظة من عصور الحياة .. فقد اختلفت البداية .. في الأصل .. وفي سلالة الخلق .. وفي البشرة .. فكان البشر خلقا آخر «فتبارك الله أحسن الخالقين» المؤمنون ١٤.

وهنا قد يثور سؤال : كيف يثبت القدرة الغيبية في بداية خلق البشر من طين؟

فيرد عليهم رب البشر سبحانه في معجزة مادية رداً لنبوة ورسالة عيسى بن مريم عليه السلام « .. أنى قد جئتكم باية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله .. » آل عمران ٤٩،

وهكذا نؤمن بمادية خلق البشر دفعة واحدة من طين .. صلصال كالفخار بكن فيكون دون أية تطورات سابقة في التو واللحظة أى أن مدة الخلق من طين بشرا كانت مرة واحدة في مدة آنية .. مثلها مثل البعث في لازمن.

"ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » لقمان ٢٨.

الموقفان ... والعلة

ولنذكرموقف البشر حين حمْل الأمانة .. ثم موقفهم حين وقفوا أمام خالقهم رب العالمين صفاً فيأخذ عليهم الموثق العظيم ... ألست بربكم ؟ قالوا بلي ..

وليس من الممكن طبقا للطبيعة - التي ذكرت معناها آنفا - في الكون والإنسان، أن يُعلِّم الله عز وجل الإنسان البيان، وهو مازال مخلوقا يمشي علي أربع .. يعني قبل أن تتم تسويته .. اللهم إلا بدايات تليق به في حالته ... تلك، كما نعلِّم الطفل حروف الهجاء ثم تركيب أبسط الكلمات من قبل أن يدخل إلى لغة ثم إلى علم .. فذلك الوعاء الذي به المخ؛ في هيئة الخلق لأول مرة؛ لايمكن أن يتفاعل مع القلب ولا القلب يستوعب فيرسل إلي المخ بإشاراته عندما يكون ثمة بيان رفيع المستوى يليق بالعلم من بعد المعرفة لكل ما خلق الله من شيء .. ولخلق السماوات والأرض من قبلهم ومعهم ثم لخلق البشر خلقا فريدا له وحده .!! يرنو فينظر ببصره مع بصيرته إلى كيف مدَّ الله الأرض فإذا بها كما هي الآن .. ويرنو ببصره مع بصيرته فيرى السماء دخانا ثم هي تبنى فتكون أحزمة واسعة جدا ثم تضيق وتشد وتجدل فتكون سقفا بناءً ضخماً قوياً عتيداً ... ثم يرى العجب مع الدهشة ..!! السماء هذه ترفع شيئا فشيئا .. حتى صعدت وجاوزت المدى .. ثم ها هو يرى نجوما لامعات تتلألأ في عالي السماء تجعل منه أجمل ما في الوجود نعمة للبصر وقرة للبصيرة وبرهانا لله العلي الكبير في وجود هذا الكون بكن فيكون .. بكن القدرة والعظمة .. و فيكون الإبراء والتصوير .. « .. الله الخالق البارئ المصور .. » آخر الحشر

ولقد يتذكر البشر .. كيف بدأ خلق الأرض نارا .. وما كانوا في حين ذلك إلا نفوسا تسبح في ملك الله سبحانه .. قد يتذكر البشر ذلك .. فإن فاتهم التذكر وغابت عنهم الذكرى .. فإن استيعاب بعض الرحمة الإلهية في دحو الأرض واستيعاب بقية الرحمة والحنان في بناء السماء ورفعها إلى عالي الآفاق .. وجَعْل الليل لباساً وجَعْلِ النهار

معاشا .. وجعل الشمس سراجا .. وجعل القمر نوراً .. وهيأ للإنسان قلبا متفكراً متدبراً .. كل أولئك .. بيد الرحمن الرحيم .. ذلك كله جعل البشر .. دونما شك يتذكر وأنى له الذكرى .. يتذكر ربه الواحد الأحد الفرد الصمد .. الذي خلق كل شيد وبيده ملكوت كل شيء .. يتذكر أنه هو الله./

فيقول رب العالمين بعيدا عن هذه المواجيد البشرية .

« الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش؛ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع .. أفلا تتذكرون» السجدة ٤ .

والتذكر استحضار الماضي إلى الحاضر .

نعم تذكر البشر .. ونعم الذكرى ونعم الولى نعم الشفيع ..

ومرت بالبشر عصور الميوسين والبليوسين وجاءوا إلى العصر الخامس البلستوسين .. ثم هجمت عليهم أول دورة جليدية وكان حجم مخهم ما بين ٩٠٠ سم٣ ثم زاد في ثاني وثالث دورة جليدية حتى صار حجم المخ ١٣٥٠ سم٣ وهذا يعني زيادة حجم الجسد أيضا ..

فإذا ما انتهت الدورة الجيدية الثالثة رأينا حجم مخ الإنسان قد وصل رلى ١٤٥٠ سم٣ أي بزيادة ١٠٠ سم٣ عن حجم مخ الإنسان الحالي ..

ويقول العلماء إن هذه الزيادة كانت في الجزء الخلفي من المخ؟ أي الخاص بالإحساس ؟ وتقول كتب الطب المعتمدة حاليا عالميا أن الجزء الخلفي من المخ خاص بحاستي البصر والسمع .. والسمع في الآخر من ناحية الوسط تحت فصوص الإحساس والبصر في الآخر من أسفل المخ ..

إذا الزيادة كانت في مراكز أعصاب السمع والبصر .. وهما جهازي المعرفة العظيم .. قال ربنا العظيم لرسوليه هارون وموسى عليهما السلام :

« قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » طه ٤٦ .

فأثبت العلي الكبير معيته الإلهية بالسمع والرؤية ...

ومن ثم كان السمع للبشر والرؤية التى رآها البشر هما وسيلتا المعرفة بالله سبحانه وتعالى في خلقه وقدرته وعظمته وفي ملكه وملكوته، فإذا ما انتهى علم الإنسان البيان فيما بعد الدورة الجليدية الثالثة سألهم رب العالمين : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ...

فذلك اليقين ..

ففي يوم القيامة يحضر الكاذبون المجرمون أمام رب العالمين ناكسوا الرأس ويحكى لنا ربنا منظرهم ومقولتهم ...

« ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون» السجدة ١٢ .

وعَلِمَ البشر .. أنَّ يوم القيامة لاريب فيه .. فيه حساب وجزاء .. ثواب وعقاب - وأقسم البشر أن لا يغفلوا عن ذلك ..

ومن ثم

وطموحا في الخلود في جنات النعيم أبدا

أسرع الإنسان وحمل الأمانة .. وأقسم أن الله ربه ..

وأن الساعة آتية لاريب فيها ...

لعلك رأيت كما رأيتُ أن الجليد في آخر حقب الحياة الحديث قد جعل الأرض صحراء جليدية .. ولعلك رأيت الدورات الجليدية الأولي والثانية والثالثة ؛ قد تمخضت عن ذلك الإنسان ذي مخ حجمه أكبر من حجم مخ الإنسان الحالي بمائة سنتيمتر مكعب في فصوص الإحساس – كما قال العلماء – وفي رأيى في فصوص السمع والبصر كا تقول الكتب الطبية الحديثة المعترف بها عالميا ..

ونسأل عن السبب في هذا الذي أدى بمخ الإنسان إلى أن يكون حجمه كبيرا سيما في مراكز السمع والبصر، ولنزيد عليها فصوص الإحساس أيضا فالثلاثة متجاورين .. وفي جوار أيضا ؟ [1] .

وليس لنا من علم بهذا السبب إلا من تلك البيئة الجليدية الدائمة آلاف السنين بصفة متصلة ودائمة جعلت الإنسان يرهف سمعا واعيا في انتظار الصيد .. الذي هو أهم مقومات حياته وهي الطعام الدسم الممتاز .. أو هو يرهف السمع احترازا من عدو يتربص به ويترسم خطاه ليفترسه أو يفترس أسرته .. أو هو يرهف السمع ليدرأ عن نفسه عاصفة ثلجية هوجاء لا تُبقي ولا تذر .. أو هو يرهف السمع حذرا على صغاره في تجوالهم هنا وهناك .. كما وأنه أرهف السمع .. فإنه لابد وأن يعمل بصره في جنبات المكان وأن يتحري ببصره .. ضالة له كان ينشدها .. أو يُجيل بصره باحثا منقبا عن فريسة له بين جنبات الجليد .. أو محددا طريقا له يتبعه في رحلة ..

ثم إن البشر .. في هذه البيداء الجليدية .. لابد أنه متعرض لصقيع الجو وشرور الأعاصير .. وقارص البرد .. وآلام ومشاق المجاهدة البدنية والنفسية .. ثم إنه مع الجليد .. لا يستطيع أن يكون مأواه في أى مكان .. بل إنه مأوى معين محصن ضد هذا

---

(١) الجوار لغة هو العهد بالحماية من القوى للضعيف وتلك الفصوص المخية .. وهي خلايا عصبية .. كل منها يحمي الآخر ليؤدى عمله جيداً .. واللفظ هنا من قبيل الكناية .

الجو العاتي المهلك الذي لا يسمح بأى تهاون في الاستعداد حذرا من مهلكاته ..

إن النصب تعب الجسد واللغوب تعب النفس .

وكان البشر – في حقيقة الواقع – في نصب ولغوب معا ..

وقد نطقت حفريات البشر .. في ذلك العصر الجليدي بأنه كان صيادا ماهرا .

فلعل ذلك وغيره قد جعلت هذا المخ أهلا لقلب فياض الفكر .. خرج من ملايين السنين من رباط الأرض إلى افاق السماء والعلا .. في تطلع إلي خالق هذه الجنبات جميعا .. بل خالق هذه الأرض وما فيها .. بل هو الذي بني ذلك الدخان الكثيف المخيف في جعله أحزمة شديدة القوي .. بل هو الذي بقوته العجيبة الغريبة التى لا يراها أحد قد جعل هذه السماء بهذا البناء المهيب ترتفع وترتفع إلى أن بلغت بعدا وسمكا عظيما .. «بغير عمد ترونها» ... ثم وبإكمال البناء المهول فقد ازدان بمصابيح تتلألأ بالنور وتنتظم في أبهى مشاهد تُحير البشر .. تُغريهم أبدا بالنظر إليها والتطلع إليها .. ثم بالتفكر فيها .. وفي هذا القوي العظيم الجبار الذى خلقها فسواها .. فجعل عظمته وقوته رحمة بالبشر .. فيا لعظمة القوة الرحيمة ..

ولعل البشر في تفكرهم في السماء وجمالها وهيبتها .. وفي زينتها تلك النجوم اللآلئ .. لعل البشر في ذلك التفكر في خالق السماوات وخالقهم وخالق كل شيء .. كانوا ينسون قسوة الجليد وهلكته .. ويرون فيها رحمة إذ جعلتهم يتواثبون في معرفة عظمة الرحمة .. يتضرعون إلى صاحب الرحمة .. أن يشملهم في حياتهم بحنانه ..

ولعل التضرع إلي الرحمن .. وهم لا يرون إلا بياض الجليد .. لا شذاب فيه .. قد خلى بين بصرهم وبصيرتهم .. فهما معا جماع شعور بل إحساس .. بل فكر .. بل حق .. بل علم .. هو أنه هو الله وليس من شيء معه .. هو صاحب الأرض ناراً وصاحب الأرض قفراً .. وصاحب الأرض بحراً ... وصاحب الأرض صحارى .. وصاحب الأرض جليدا .. وصاحب السماء دخانا .. وصاحب السماء بناء .. «الله الذى رفع السماوات بيغرعمد ترونها؛ ثم استوى على العرش» الرعد ٢.

لقد رأيناه نحن البشر .. لقد رأينا وسمعنا .. الأرض ناراً . حتى صارت جليداً .. ورأينا السماء دخانا ... حتى صارت سقفا جميلا فريدا ... إنه .. هو الله.

فلعل البشر تفكروا كما لم يتفكر من بعدهم أحد من أناس اليوم وقد أخبرهم الله عز وجل في محكم التنزيل أنه كان يجعل الشمس إذا طلعت تزاور عن أهل الكهف ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ... ومع أن الميّل فيه زيادة في طول الفلك .. فإن الله أحصى السنين لم تزد أو تنقص ولا للحظة من ثانية ...! .

ولعل أحدا لم يتفكر في هذه الحسبة الفلكية علي ما فيها من خروج عن المسار .. ثم انتظام الزمن بالقرار الإلهي في مدته .

ولعل البعض اجتزأ من الواحد أبعاضا .. ولم يضع في حسبانه أن قرار الله واحد .. ليس له من أبعاض .. فالله سبحانه وتعالى «هو» .. قائم بذاته لا يتوقف على غيره فهو «هو» .. ومن ثم كان كلامه مثله سبحانه هو .. فهو قسم لا قسيم ...

ولعل البعض .. لا يتفكر في القصة كلمة بكلمة - متوغلا في أعماقها.. مأخوذا بدهشة الواقعة .. معطوفا على عبرتها ..

ولعل ... ولعل ... البعض لا يعنى بالبرهان .. فلا يفهم البيان !! .

ومن هذا وذاك تكون الغفلة طاغية؛ رغم أن التفكر فريضة ومسئولية ضخمة تفرق البشر عن غيره .. فيُسأل عنهايوم الحساب !! ذلك بأن ترك التفكر مضيعة للبشر .. تجعله مقُوداً لغيره دون وعي ... ودون إرادة ... فهو في الحقيقة قد ترك نفسه لغيره .. والله عز وجل خلقه لنفسه ، خلقه عبدا لله عز وجل ولم يخلقه عبدا لغيره .. فهو في صحيح الواقعة صار عبدا لبشر وخرج عن أن يكون عبدا لرب العالمين .. فضاع ...

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» الأعراف ١٧٩.

ولأن الله سبحانه هو رب العالمين .. فقد ربى البشر بأقوم وأشد سبيل معا .. هو أخذهم بواقع الأمر فيهم مع الكون من حولهم .. على مدار آلاف وملايين السنين فكان خلقهم طبيعة كونية ، ومن ثم كانت فطرتهم هي ذات فطرة الكون المرئي والمكتوب معاً .. «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله؛ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» الروم ٣٠.

فالدين والإنسان والكون فطرة واحدة وطبيعة واحدة لله الواحد القهار ...

وفهم البشر البيان .

وكان يقينهم بالله أكثر قراراً في نفوسهم من اليقين .

وإذا كان القرآن يحكي لنا عن نوح عليه السلام . وقد ظل يدعو إلى ربه سبحانه ٩٥٠ سنة ...

فإن الحقيقة القرآنية المستنبطة تقول بكل الوضوح أن الله سبحانه قد جمع بين ذرية آدم حتى نهايتها، فهم يوزعون؛ لا يموت منهم أحد .. يتناسلون ولا يموتون؛ كما يفعل بإبليس وذريته الآن؛ حتى إذا اكتمل جميع ذرية آدم، واكتمل فيهم «البيان» ؛ واكتمل فيهم نور الإيمان حتي رأينا الحفريات وهم فيها يتوسدون جانبهم الأيمن في وقار الإيمان وطاعة الرحمن، رأيناهم وقد عرض عليهم العلي الكبير مع كل الكون : من يحمل الأمانة؟!

ذلكم هم بنو آدم وقد أجاب أبوهم ادم بطل البشر أن يحمل الأمانة [1] .

ذلكم هم بنو آدم .. من بعد أبيهم ... أو هم ومعهم أبوهم آدم .. يقول لهم رب العالمين :

«ألست بربكم ؟ قالو : بلى

لقد وقفوا أمام العلي كبير صفا ... وأقرُّوا فأحصاهم وعدَّهم عداً .

---

(١) مختصر الطبري / ٤٨١، وتفسير ابن كثير جـ ٣ /٥٢٢.

وكان .... ميثاق النبيين

فرغَ بنو آدم من موثقهم العظيم مع الله عز وجل .. خُشَّعاً له جل شأنه، لا يلوون على شيء إلا الطاعة الكاملة له لينالوا سؤدد الآخرة ..

والله سبحانه قضى بأن تكون الحياة الثانية، حياة الابتلاء للبشر في غطاء حتي يصح الاختبار.

فلا يرى البشر شيئا ولا يسمعون شيئا إلا في حدود ذلك الغطاء؛ فالرؤية البشرية رؤية مادية قاصرة . حتى إن كانت في الفضاء جعل الأفق لها حداً .. وكذلك السمع فيما يصله من ذبذبات مادية قادرة على هَزّ أعصاب السمع وأدواته فيسمع الإنسان بقدر .. وأما العلم «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» البقرة ٢٥٥.

فالرؤية والسمع ملك لله .. وكذلك العلم من قبل ومن بعد .

وإذا كان تفكرا ، فإنه يحتاج إلي استكشاف علوم الظاهر سنن الله في كونه، وإلى الهداية وإلي العلم بالقرآن .. حتى تكون لهم مكرمة من الله العليم الخبير الكريم الوهاب .. وعنده ...

كان البشر إذا مرهونين في حياتهم القادمة .. بالغطاء الكوني .. كما أنهم – في حالة عدم الطاعة – سيضعون أنفسهم في غطاء آخر أشد تماسكا وأشد عتامة .. غطاء ذلك الجسد إن طغى في الطعام والشراب أو الفساد أو فيها جميعا ..

ذلك الذي سيتخذ إلهه هواه، فيحارب الله عز وجل في الناس .. فيصدهم عن سبيل الله، حيلة ومكرا . أو قصدا وجبرا .. ابتغاء العوج والضلال .. كذلك الذي اتخذ من ملة المزدكية دينا [١] أو ادعي الألوهية طغياناً ..

أنماط كثيرة من الناس تكون في غفلة عن الحق، واقعة في الباطل حتى قمة الرأس

(١) مذهب يدعو للإباحية الكاملة انتشر في فارس قبل أن يدخلها الإسلام.

.. وقد تتخذ من المظهر الكاذب رداء للكبر والتعالي ...

أو هؤلاء الفريق الذي لا يصدق فلا يؤمن إلا بنفسه وبما تمسكه يداه وتراه عيناه ويحسه جلده ..

أنماط كثيرة .. كثيرة من الناس . لا يهمها ولا يرضيها إلا زينة الحياة الدنيا .. المال . البنون .. النساء .. الذهب .. الحرث .. الخ.

إذا سيكون الناس في غطاء

وهذا الغطاء هو الذي سيغشى الناس .. فلا يرون الملائكة ولا يرون النور .. إلا إن كانوا مع رب العالمين فيجعل لهم نورا يمشون به في الناس ..

ولأن الأمر جد صعب وشاق .

فإن الله سبحانه برحمته وحنانه ورأفته بالبشر ، قدَّر إرسال الرسل والنبيين في حياتهم القابلة هذه تذكرهم بالحياة الأولي تذكرهم بحمل الأمانة وتذكرهم بالموثق العظيم..

تذكرهم بأن ما هم فيه إنما ابتلاء وبعده هلكة ثم بعث وحساب لا يترك مثقال ذرة إلا أحضرها ..

ومن ثم ..

فقد أرسل الله الرحمن الرحيم .. الرسل والنبيين .. حتى إذا كان البشر في كامل النضج ختم المرسلين بخاتم النبيين والمرسلين .. صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ...

إذاً فهذا الأمريحتاج إلى موقف إلهي مع النبيين يوضح لهم مهمتهم .. ومواقفهم مع البشر فيحكي لناربناعز وجل ما قاله وما قالوه :

«وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه؛ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؛ قالوا أقررنا؛ قال

فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» آل عمران ٨١.

إذا كان ختاما لتربية البشر، وتعليمهم البيان، وحمل آدم الأمانة وأخذ الموثق على ذريته؛ أن الله سبحانه ربهم وأنهم يوم القيامة لن يدّعوا الغفلة ..

كان ختاما لهذا أن أخذ اله عز وجل على النبيين الموثيق الإلهي بأن يكونوا مُذكرين للناس فيقولوا لهم بما سيأتيهم من ربهم من كتاب وحكمة .. حتى إذا جاءهم المصطفي صلى الله عليه وسلم يؤمنوا به وينصروه وكذلك فعلوا جميعا .. بل بشروا به في إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعا السلام ..

وبعد أن انتهي هذا الموقف المقدس .. جاءت الدورة الجليدية الرابعة .. واستمرت عشرات الآلاف من السنين؛ غطت الأرض كلها جليدا .. فكانت صحراء جليدية بيضاء .. فأهلكت كل ذرية ادم ..

فلم تُبقِ منهم أحدا .. وصارت الكرة الأرضية كلها وليس فيها بشرٌ أبداً .. وكذلك انتهت الحياة الأولى .

بعث آدم ... في الجنة

.. كان ذلك منظر الأرض جليدٌ أبيض .. كرة كبيرة من الجليد .. مع أنها كرة مهولة من النار كانت ثم من الحجر .. ثم من الحجر والعشب والشجر ..

وهذه التقلبات من حكم الله سبحانه فيماخلق .. «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» الملك ١٤ .

وأتى الله بالشمس من المشرق في فلك يجعل المناخ على الأرض معتدلا .. كما هو الآن .. وجاء شعاع الشمس ساخنا .. فذاب الجليد حياءً فكان ماء .. ثم نبت العشب ثم ظهر الشجر .. وكان النهار في بعض الأيام قيظاً .. فإذا ظهر القمر انسابت الطبيعة فضية جميلة في صور خيالات الأشياء في ماء البحيرات والأنهار .. وظهرت الحيوانات .. الإبل والأنعام .. والطيور .. والكلاب والذئاب .. وانتظمت الشمس في فلكها ومعها انتظم القمر .. ومن ثم كان الليل والنهار . ويقول ربنا عز وجل في وصف أساس الطبيعة.

«لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» يس ٤٠ ، والأنبياء ٣٣ (١) .

وإذا فقد اكتملت الطبيعة وصارت في صفاء ونغم ..

وأنزلت الأمطار .. وجرت الأنهار .. واخضرت المراعي .. ونشأت الغابات بلفيف الأشجار .. ووجدت الثمار والزهور والريحان .. واستعدت الأرض لمن يعمرها بفطرة الله سبحانه وتعالي فيه ..

وأخبر العلي الكبيررب العالمين .. الملائكة ..

---

(١) كتابينا "الله والكون» و "رحلة في أعماق الكون» .
واقرأ قوله تعالى «الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام» لتعرف أن الأرض هي مركز السماوات السبع.

«إنى جاعل في الأرض حليلة » .

ولأن الله عز وجل كان قد خلق البشر كسالف البيان والتفصيل ثم سواهم ثم عدّل قاماتهم ثم صورهم فأحسن صورهم وعلمهم البيان .. كيف يتفكروا ، وكيف يُبينوا ما فكروا فيه .. كيف يتكلمون .. كيف يتعارفون .. كيف يفقهون ..

ولأ ن البشركانوا منذ الخلق في النشأة الأولي .. عرايا الأجساد .. ونشأت حياتهم في مجتمعات كلها عراة .. وكلها عري .. وما نشأ عن هذا العري من فساد .. ومن ثم تفشى لكل معاني الإباحية والفحشاء .. وأكاد أتصور أن الجريمة كانت هي الأصل وأن القانون كان هو القوة .. وأكاد أتصور أن تسوية البشر واعتدال قاماتهم وتضخم أمخاخهم قد أنبتت لديهم أعراف كثيرة نشأت مع هذه الهيئة الجديدة ومع نشأة المجمعات .. والاستقرار في الزراعة .. وتذليل الأنعام ووفرة الزرع مع الضرع .. ومع ذلك فإن بقاء العري أو ما يكاد يكون عريا .. لم يحدث معه أي تقدم أخلاقي بالمعنى المفهوم حاليا بين الناس .. ذلك بأن الغريزة الجنسية غير محمولة على أسباب تجعلها في منأى عن الاشتعال !!

ولأن حال البشر .. كان كذلك .. فقد ظلت الجريمة .. هي الأساس ..

ولأن الملائكة كانت شهودا على ذلك كله .

فقد أجابت الملائكة أو قد علقت الملائكة على نبأ الخلافة بقولها :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .

ذلك بأن الملائكة قالت ما رأت ... فلا يعلم الغيب إلا الله ..

ومن ثم فقد اندهشت الملائكة وعجبت !! .. ثم استنكرت .. ولم يكن بعد ذلك الاستنكار إلا الطموح .. فقالت

« ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

رد ربنا سبحانه وتعالى عليهم :

« إني أعلم ما لا تعلمون » .

«وعلم آدم الأسماء كلها» البقرة ٣٠ ، ٣١ .

إذاً فقد اختار العلي الكبير، بطل البشرادم ليجعله خليفة في الأرض ..

وهذا هو التفسير الصحيح لقوله تعالى :

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الأعراف ١١ ، وذلك طبقا للواقع الكوني الذي فصلناه انفا ، وطبقا للأدلة المادية وهي الحفريات شهود الخلق لأول مرة وطبقا لآيات الله العظيم في كتابه المحكم في آيات الخلق ثم التسوية ثم الاعتدال والخلق في أطوار وطبقا لما ثبت في مواجيد الحجر !! من تطور خلق البشر .. وطبقا لحمل الأمانة وأخذ المواثيق الإلهية للبشر ثم للنبيين المرسلين فيمابعد للبشر ..

فلقد خلق الله العظيم البشر .. بإطلاق .. كثيرين ذكورا وإناثا .. ثم صورهم رب العالمين فأحسن صورهم طورا بعد طور «مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً» نوح ١٣ ، ١٤ .

خلقهم ربنا ثم صورهم فكانوا في أجمل صورة وأكمل قلب وأعظم عصبا وحسا وسمعا ورؤية .. حتى شهدوا للألوهية بالأحدية وحتى أقسموا ألا يغفلوا ولا يضلوا عن يوم القيامة .. لم يشذ منهم أحد ...

ومن بعد ذلك

قال العلي الكبير للملائكة أن تسجد لادم .. وإذاً فالسجود لادم لم يكن في الحياة الأولى ..

لأن السجود لادم لم يكن لتعلمه الأسماء وهي الصناعة كما أخبر بذلك ابن عباس رضي الله عنهما .

ولأن السجود لآدم لم يكن إلا لأن الملائكة قد أدركت أنها على جهل بما تعلمه آدم .. وأنهاخاوية القدرة بجانب ذلك الذي تعلم علم أدوات وصناعات المدنية والقوة الحديدية

وغير الحديدية مما تعمر به الأرض وتسير به الجيوش وتجوس به المركبات بين السماء والأرض ثم تعرج به المركبات بين النجوم والكواكب في عالي السماء !!

عندئذٍ أمرهم رب العالمين بالسجود لآدم .. «فسجد الملائكة كلهم أجمعون » ص ٧٣

ولما كان كل ذلك لم يكن قبل الدورة الجليدية الرابعة

ولما كان كل ذلك لم يكن لآدم عليه السلام في الأرض .

ولما كان كل ذلك كان لآدم وقد خلقه رب العالمين من طين الأرض أحضره جبريل عليه السلام فخلقه رب العالمين في الجنه بكن فيكون ، فكان ادم دفعة واحدة سامق الطول عظيم الهيئة جميل الطلعة في أحسن صورة .. في التو واللحظة كما أخبرنا ربنا في ذلك قرآنا.

«إن مثـل عـيسي عنـد الله كمثـل آدم خلقه من تـراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران ٥٩.

كان ذلك آدم .. أول اخلق في هذه الحياة الدنيا .. اختاره ربنا لماضيه العظيم في الحياة الأولى .

«إن الله اصطفي آدم .. علي العالمين » آل عمران ٣٣ واصطفي يعنى اختار، ومقتضى الاختيار وجود المتعدد . فلم يكن ادم أول البشر .. ولكنه كان أعظم البشر ..

وهذا هو التفسير الصحيح لاية الأعراف ١١ ، طبقا لقواعد النحو أيضا ، فكلمة "ثم" حرف عطف نسق لمطلق الجمع مع الترتيب والمهلة بين الأحداث، فما كان قبل « ثم» فقد وقع أولا وما كان بعد «ثم» فقد وقع ثانيا .. وبينهما مهلة أي زمن ، وهذه القاعدة لا شذوذ فيها ولا استثناء لها. كما هو ثابت في جميع كتب النحو قديمها وحديثها من ألفية ابن مالك وشذور الذهب وكتب النحو التى تدرس في الجامعات قديما وحديثا ..

وعندئذ لا يستطيع أحـــد أن يلتف حول القاعدة بسبب الجهل أو الغباء أو الاثنين معاً .. [1] .

وكان آدم عليه السلام وقت أهبط من الجنة إلى الأرض كما وصفته السنة المطهرة .. في أعظم خلق .. كان قدمه قرية .. وخطوُهُ مفازة .. ورأسه نافذة في السماء يسمع الملائكة [2] . فلم يخلق .. في أدنى هيئة .. على ما خُلق عليهم البشر بالنص القرآني الصريح طبقا لقاعدة دلالة النص.

إذا فقد كان خلق آدم في الجنة بكن فيكون ، إنما بمثابة «بعث» لآدم الذي وقع عليه الاختيار من كل البشر الذين كانوا في الحياة الأولى ..

نعم فالله سبحانه من أسمائه الحسنى الحق والعدل .

وآدم كان أعظم البشر .. فقد رفض الكون كله أن يحمل الأمانة ؛ وحملها آدم..

وقد هلك البشر كلهم في الدورات الجليدية الثلاث الأولي إلا آدم وبعض ذريته .. فأثبت القوة الفكرية والجسدية والشجاعة .. والعظمة .. ومن ثم حمل الأمانة طموحا ..

والطموح هو القوة الحقيقية الدافعة للحياة ومراقي الحياة .

ومن ثم كان آدم في ذاته وشخصه أعظم البشر .. فكان حقاً وعدلاً أن «يختاره» رب العالمين على كل البشر .. وقد ماتوا وظل حيا بطلا بعد الدورة الجليدية الثالثة من دون كل البشر الذين أهلكهم الجليد .

فاختاره رب العاملين . وإكراما له فقد «بعثه» رب العالمين في الجنة .. في أعظم صورة .

---

(١) الغباء هو الامتناع بالإرادة عن إدراك العلم، فقد يكون الإنسان عالما، وفي نفس الوقت غبيا في شيء ما!

(٢) ابن كثير جـ ١ / ٨٠ ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله خلق ادم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سَحُوق ..) وجاء وصف آدم كما بينا جـ١/١٧٩ ، والنخلة السحوق أى العالية جدا.

أما البشر فقد كان خلقهم في الأرض في أقل صورة في الحياة الأولى .. حتى حامت حولهم شبهات القرود ...

وإكراما لآدم فقد خلق الله سبحانه له زوجة من ضلعه حتي تكون بجوار قلبه أمير جسده فتكون في طاعته وطوع بنانه سكنا له..

وإكراما لآدم ، فقد جعل الله العظيم له لباسا .. لم يتركه عاريا كما كان في الأرض واحدا من البشر وإن فاز ببطولة البشر . فجعل لآدم وزوجه لباسا من نور .. به تختفي السوءة وتختفي الغريزة .. فيحقق التقوى ..!! وأسكنه الجنة «إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى. وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى» ، طه ١١٨، ١١٩.

ولأن ادم وذريته كانوا أبطال الحياة الأولى

فإن اختيار آدم وبعثه في الجنة وتعيينه خليفة في الأرض كان الجائزة الإلهية له ولذريته ...

وأما بنو آدم .. الذين أعطوا لربهم الموثق والعهد .. لم يشذ منهم أحد .. فقد كافأهم ربنا علي إيمانهم في قوله تعالى :

«ولقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» الإسراء ٧٠.

استدعاء في غطاء في الحياة الثانية

عندما بُعِث آدم من تراب خلقا كاملا في الجنة، فقد بُعث بالخلق الذي يتوافق مع الجنة .. فكان على الوصف السابق مع أنه كان في الحياة الأولى في حجم الإنسان العادي الذي وجد منتسبا للدورة الثالثة الجليدية وحجم مخه ١٤٥٠سم٣ وهو ما يسميه العلماء الماديون بإنسان نياندرتال.

ولكننا وجدنا آدم برغم ماضيه العظيم في الحياة الأولى، يقع في غواية الشيطان ويسمع له ويعصي ربه رغم أنه سبحانه كان يكلم ادم قبيلا؛ فأكل من الشجرة المحرمة ، فكان أن أهبطه الله سبحانه وتعالى ومعه زوجه وإبليس ، الثلاثة معا ، إلى الأرض .. «ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين» البقرة ٣٦ ، بذات الخلق الذي هو فيه ..

واشتكت الملائكة إلى الله عز وجل أن آدم يتصنت عليهم .. فنزل الرحمن بطول قامة ادم إلي ٦٠ ذراعا .. وأمر الملائكة فبنت له البيت الحرام الكعبة ليأنس إليها في عبادة الله تبارك وتعالى .

وكان أن التقى ادم بحواء في بكة .. وبث الله منهما رجالا كثيرا ونساءً وحكى لنا ربنا ذلك في قوله تعالى :

«ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ..» النساء ١.

وإذاً فقد كانت معصية ادم وحواء وغواية الشيطان لهما هي البداية في ابتلاء الإنسان لمجازاته يوم القيامة تحقيقا لقوله تعالى :

«وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه علي الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» هود ٧ .

فهذه الآية الكريمة تعطينا العلة أي السبب في خلق السماوات والأرض ، إنها لابتلاء الإنسان .. أيهم أحسن عملا ..

فإذا ما عدنا بالذاكرة إلي الحياة الأولي وجدنا أن نفس العلة هي معرفة أي البشر أحسن عملا . وكذلك في الحياة الثانية أى الحياة الدنيا .. وإن اختلف العمل في الأولى عن الثانية ...

فإذا تحرينا عن موضوع الحياة الأولى وجدنا أنه خلقٌ وتسويةُ البشر وعدْله وابتلائه حتى لا يبقى إلا الأصلح تفكرا وفقها ويقينا بالله واليوم الآخر .

فإذا تحرينا عن موضوع الحياة الثانية، وجدناه اختبارهؤلاء الناس في فطرتهم التي فطرهم الله عليها في الحياة الأولى ..

وأما الحكمة في الحياة الأولى فهي عظمة التفكر والمجاهدة والمثابرة وتكريس توقير الله العظيم في نفوسهم ، وقد خلقهم وسواهم أطوارا .

وأما الحكمة في الحياة الثانية فهي بعثهم وحسابهم ومجازاتهم .. ومن ثم كان لابد أن يوجد الناس في الحياة الثانية في غطاء .. فلا بصر حديد ولا سمع بلا حدود ولا يرون الكون كله عياناً .. فصار الكون غيباً وشهادة في مكنة البشر ...

وسنَّة الله العظيم لا تتبدل ولا تتحول ..

فقد خلق البشر لأول مرة في الحياة الأولي من تراب بمطلق القدرة الإلهية ذكورا وإناثا كثيرين بلا عدد نعرفه على الهيئة والحجم سالف البيان مرة واحدة في لا زمن . ثم بعد ذلك كان التكاثر بينهم بالتزاوج من نطفة فعلقة فمضغة .. الخ.

وقد كانت الحفريات دليلا وبرهانا ماديا على ذلك تنفيذا لقوله تعالى «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ...».

وم ثم لا نسمع ولا يمكن أن نسمع لمن يقول إنه كان آدم وحده .. فذلك قول بلا دليل .. ويتناقض مع آيات أخرى كثيرة ويجحد الحفريات البشرية .. ويجحد بايات

بل إن الأمر الإلهي في قوله تعالى «قل سيروا في الأرض ..» يستلزم بالضرورة وجود الكثرة التى يبحث عنها الإنسان الحالي - الذي هو بمفهوم المخالفة نهاية الخلق - لأنه لو كانت البداية لبشر واحد فقط ما أطاق الإنسان الحالي البحث عنه ولا استطاع ولكان الأمرمستحيل التنفيذ؛ بل إنه يكون قولا مُفتقدا لاستشفاف مكنة البحث التى لابد أن تتوافق مع سعة المكان محل البحث فيه . وهو كل الأرض !! وقدر العدد الذي يجعل البحث عنه مُستطاعاً ومؤديا ..

وفي الحياة الثانية (الدنيا) .

كان الخلق لآدم وحده من تراب وخلقت زوجه من ضلعه بيانا من السنة المطهرة للآية الأولي من سورة النساء «... الذي خلقكم من نفس واحدة - آدم - وخلق منها زوجها - حواء - ..» . ثم كان التكاثر منهما بالزواج «وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ..» .

إذا فكان الخلق الأول للكثيرين من تراب ثم التكاثر بعد ذلك من علق

وكان الخلق أو الاستدعاء أو البعث لآدم من تراب ثم التكاثر بعد ذلك من علق.

وكذلك البعث .. كما الخلق لأول مرة كان .. من تراب

«يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب» الحج ٥.

وإذا فالخلق الأول من تراب والثاني من تراب والبعث من تراب ، وقال سبحانه وتعالى «منها خلقناكم وفيهانعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» طه.

ولكن ما هو الغطاء ؟

يقول ربناسبحانه وتعالى : «ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد .. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق ٢٠ - ٢٢ .

ومن ثم !

فيلزم أن نعرف (كيف الإنسان) حين البعث ..

والله سبحانه وتعالى يُخبرنا أن البعث سيكون خلقا جديدا ولكنه من تراب ... فالنفس بمافيها من روح وسر وعين سر تتزوج التراب جسدا له فإذا هم ينظرون !! . وكانوا من قبل .. يقولون .. «وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا» الإسراء ٤٩، ٩٨ !! .

فيكون الإنسان حين البعث جسدا ترابيا خاليا من الماء والدماء والطعام والشراب والنفايات .. مملوءا بنور النفس وأنوار الروح والسر وعين السر ..

ومن ثم

يكون خلقا منورا .. بغير غطاء .. فيكون بصره حديد وسمعه .. فنرى بأعيننا كل شيء في الكون ونسمع كل كلمة في الكون . لأن اهتزازات مادة الجسد المنور متوافقة مع اهتزازات موجات كل ما في الكون .. أى أن الغطاء الذى كان غير البشر حاليا هو ثقل موجات مادة أجسادهم المليئة بالطعام والشراب والنفايات فلا تتوافق مع النور الذى خلقت منه الملائكة .. ومن ثم لا نرى النور ولانرى الملائكة ويظل مع ما يتوافق مع اهتزازات موجات مادة أجسادهم بما فيها . وبالتالى في غطاء ...

ولهذا

يأمرنا رب العالمين في ثالث نداء وجهه لبنى آدم في هذه الحياة الثانية :

«يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين» الأعراف ٣١ .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله :

(نحن قوم لا نأكل حتي نجوع وإذا أكلنا لا نشبع).

وذلك حتى تظل النفس الإنسانية غيرمشغولة بغير الله وتظل أيضا سليمة من أمراض البطنة التى هي أساس جل الأمراض.

فإذا رجعنا إلي الخلق الجديد حين البعث .. جسد منور ووجه منور . قرأنا في محكم التنزيل أن علامة الكافر حين البعث سواد الوجه وزرقة العينين في قوله تعالى «فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم» آل عمران ١٠٦ و «ونحشر المجرمنين يومئذٍ زرقاً» طه ١٠٢ .

هذا ما أراه في معني الغطاء .. وقد توافقني وقد لا توافقني .. وقد يكون الغطاء سرا آخر فالله سبحانه وتعالى أعلم ..

وذاك الغطاء الذي فيه البشر في الحياة الثانية (الدنيا) أمر لازم لابتلائه .. فهو لا يرى إلا عالم الشهادة .. والإيمان هو اليقين بالغيب !! بالتفكر الصحيح .. ومن ثم فإن نور الإنسان يجب أن يكون واصلا بالروح التي هي من الله سبحانه .. وهذا الوصل هو الذي يجلب للقلب نور الإيمان أى نور اليقين بالله في قلبه من بعد أن يشرح الله له صدره

ومن ذلك نعلم ..

أن الأصل أن يكون نور الإنسان أى نور قلبه في شفافية .. أى يكون القلب سليما أى خاليا من الإثم ...

«يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» الشعراء ٨٨، ٨٩ .

فإذا كان القلب سليما .. كان منورا .. ومن ثم كان مع أطياف وأنوار الرحمة الإلهية . فكان على يقين بالله العلي العظيم والغيب كله ..

فكان صادقا مع نفسه ومع الناس ومع الله عز وجل .. والصدق يولد الأمانة في النفس .. فيكون قد حمل الأمانة بالصدق والحق بفطرة الله فيه ..

وورد الصدق والأمانة .. العمل الصالح .

ومن ثم كان «العمل الصالح» شرط في المؤمن لدخول الجنة.

علوم الجغرافيا البشرية والجيولوجيا الجغرافية وجيولوجيا الحياة عند العلماء الماديين؛ لا تعترف بقصة خلق ادم في الجنة من تراب بمطلق القدرة الإلهية حين الخلافة ولا بخلق حواء من ضلعه ، ولا بالخلافة في الأرض أصلاً ..

كما أن هذه العلوم لا تعترف بخلق البشر من تراب .. صلصال كالفخار بكن فيكون كما في الخلق لأول مرة بشرا في أدنى هيئة .. ولا في خلق عيسى بن مريم.

ذلك بأنه عندهم

أن التطور هو مدرجه خلق كل شيء في الوجود ومنهم الإنسان والناس جميعا . فالأصل الماء فالخلية الحية المفردة فالانقسام والتكاثر ثم التزاوج والتكاثر والموت ...الخ حتى وصل الإنسان إلى هيئته الحالية ..

ومن ثم فإنهم - أي العلماء الماديين - يرون أنه إذا كان الإنسان الحالي الذي ظهر منذ ٢٥ ألف سنة مضت لم يتطور إلي ماهو أرقى .. فإن المدة جد قصيرة .. لم تسمح بظهور تطور جديد بعد .

ومن هنا فقد استعجل بعض العلماء هذا التطور بضرورة إحداثه في ثورة بيولوجية في مرحلتها الرابعة المساماه بالهندسة الوراثية لتكون عامل تصديق وتأكيد لنظرية التطور العضوى في دارون .. ولإمكان التدخل البشري للتأثير في الوراثة البشرية وفي أنواع الكائنات [١] .

ولأن الدين مبني أساسا في كتابه المحكم العظيم، في الخلق، علي الإيمان اليقين بأنه سبحانه وتعالى «هو الله الخالق البارئ المصور» الحشر .. وأنه خلق الإنسان بداية

---

(١) مجلة «ديوجين» عن اليونسكو - العدد ٥٤ صفحات : ٥٨ - ٧٢ في أغسطس - أأكتوبر سنة ١٩٨١.

يسير على قدميه مع يديه وله ذيل وتطور به إلي أن صار في أحسن صورة .. في قوله تعالي «... وصوركم فأحسن صوركم ..» غافر ٦٤ ثم اختار أعظم البشر آدم عليه السلام فبعثه في حين الخلافة في أعظم صورة وهيئة في لازمن بمطلق القدرة الإلهية في الجنة.

ولماكان كتاب الله العظيم القرآن المجيد هو الرسالة الخاتم من عند الله العلي الحكيم إلى البشر أجمعين يحيون به ويبعثون عليه ويحشرون ويحاسبون.

إذاً

فليس ثمة تطور للإنسان، الذي أرسل إليه ربه النبيين والمرسلين وختمهم بسيد الناس أجمعين صلى الله عليه وسلم الذي بلغهم بقول الرحمن سبحانه وتعالى «لا تبديل لخلق الله» الروم ٣٠ .

فإذا سمعنا بثورة بيولوجية وهندسة وراثية تلعب في الكروسومات داخل الجينات ، فذلك إنما إساءة إلى البشر بالبشر .. في عدم احترام للموروثات البيولوجية التى خلقت بسر الخلق الإلهي في الإنسان في لحظات انفعاله بالمماسة الجنسية بين الزوجين . فيخرج ماء دافق من الرجل والمرأة من نبع لا يعترف به العلم المادي ولن يصل إليه علم .. لأن الخلق سر من أسرار الله سبحانه في قوله تعالى :

«فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب» الطارق.

والصلب هو العمود الفقري في ظهر الرجل والترائب هي عظام صدر المرأة.

ولأن ذلك غيب وسر كله

فقد أقسم ربنا عز وجل على أن ذلك هو الحق بقوله تعالى في نفس السورة :

«والسماء ذات الرجع .. والأرض ذات الصدع . إنه لقول فصل .. وما هو بالهزل » فأى قول غير ذلك هو مجرد هزل.

أما العلماء الماديون فيقولون بأن الحيوانات المنوية قاصر وجودها على الحويصلة

المنوية وخصيتي الرجل، والبويضة الأنثوية فقاصر وجودها على مبيض الأنثى . ولا شأن لصلب الرجل وعظام صدر المرأة بهذا الأمرمطلقاً !! [1] .

ذلك مبلغهم من العلم ، وسبحان الله عما يصفون ...

فإذا كان العلماء ... جميعهم .. يعترفون بأن الإنسان الذي كان فيما بين الدورة الجليدية الثالثة والدورة الجليدية الرابعة (حجم مخه ١٤٥٠ سم٣) قد انقرض نهائيا في الدورة الجليدية الرابعة لعدم وجوده بعدها هو هو !!

فإنهم مع ذلك ، وتصديقا ظنيا !! .. لنظرية التطور، يقولون بأن ثمة فرع آخر لبشر لم يقض عليه لأنه أتى من الجنوب والشرق !! منذ ٢٥ ألف سنة وهاجر في أعظم طوفان للهجرة إلى أوروبا وغيرها !!

وهذا تكذيب لآيات الله العزيز الحكيم .. كما أنه يناقض ماديات العلوم الجغرافية في المناخ ..

ذلك بأن امتداد الدورة الجليدية الرابعة في هذا العصر الخامس البلستوسين من حقب الحياة الحديث، لأكثر من ١٠٠ ألف سنة .. وشمول هذه الدورة بحكم القواعد المناخية للكرة الأرضية كلها .. حيث يؤكد ذلك وجود الحفريات لإنسان تلك الدورة الجليدية المسمى بالنيندرتال في أوروبا وفي شمال الصين وفي منطقة الكوبانية شمال غرب أسوان ٢٥ كيلومترا وعمرها ٧٠ ألف سنة أى أثناء الدورة الجليدية الرابعة .. فهذا الواقع المادي الصارم يدمغ مقولة العلماء الماديين آنفة الذكر بالخطأ المادي والفكري معا .. لأن وجود الجليد مطبقا على وجه الأرض هذه الأزمان الطويلة جدا .. يعني بعد فلك الشمس عن الأرض للدرجة التي جعلت الأرض كتلة جليدية .. ومن ثم فإن تفلطح الأرض عند خط الاستواء لا تكوّن قربا للشمس يجعل لها درجة حرارة مرتفعة بالقدر الذي

---

(١) وهذا المنهج المادي ثابت في جميع الكتب التى تدرس في الجامعات أو تنشر على الناس، كما أنه ثابت في مطبوعات ولوحات متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك وكذلك في كتاب جسم الإنسان، ترجمة صلاح الدين سلامة ، صفحة ٩٥ حتى ١٠١ .

يجعل الأرض غير جليدية في المنطقة الاستوائية .

فلوحسبنا درجات حرارة الأرض .. لوجدنا أن استمرار الجليد إنما يعني استمرار درجة الحرارة من ٣٠ إلى ٤٠ وأكثر تحت الصفر لأكثر من ١٠٠ ألف سنة وهذا ليس تغيرا طارئا في درجات الحرارة نتيجة انخفاض أو ارتفاع جوي ، وإنما هو حال قائم ثابت دائم آلاف السنين وهو ما يعني بالضرورة بعد الشمس في فلكها عن الأرض لأكثر من بعدها الحالي على مدى هذه الآلاف من السنين . وهذا يعني أن الكرة الأرضية كلها قد صارت الشمس بعيدة عنها ، وبالتالى يجعل درجة الحرارة على الأرض كلها متناسبة ، فإذا كانت درجة الحرارة في جنوب أوروبا ٤٠ تحت الصفر ، فإنهاتكون عند خط الاستواء من ١٠ إلى ٢٠ درجة تحت الصفر. أى منطقة جليدية أيضا .. ومن هذا جميعا فإن الكرة الأرضية كانت مغطاة بالجليد لمدة ١٠٠ ألف سنة .

وهذا التحليل العلمي المادي يقطع بهلاك كل البشر إبان الدورة الجليدية الرابعة ويقطع الطريق على المقولات الظنية التى قالها العلماء الماديون سابقة الذكر .

وأقول للعلماء المؤمنين ..

إن الجحود بآيات الله العظيم ليس إلا دليلا علي الخطأ والبطلان في تفسير واقع الأشياء وتفسير آيات الرحمن الاثنين معا .. وهو ما يتساوي مع تطويع معانى كلمات الله لتطابق الأفكار المادية .

وإذا كان العلماء في الماضى والحاضر لم يستطيعوا أن يُسندوا التطورالعضوي ومن قبله الخلق إلا إلى قوى غيبية .

وإذا كان دارون من قبلهم قد أقر بأن طفرات التطور العضوي تحدث بدون سبب معلوم ولامفهوم وأنها تحدث تلقائيا فجأة [١] .

فإن اتخاذ العلماء طريقا آخر لتطور البشر بعد نهاية الدورة الجليدية على أساس

(١) تراث الإنسانية، مجلد ١٢/٢، صفحة ٩٨٣، ٩٨٤ أصل الأنواع لدارون .

الظن وليس على أساس حفريات متواصلة مربوطة بعضها بالبعض .. يجعل هذه المقولة المخالفة لقواعد الجغرافيا العامة .. والقواعد الجيولوجية .. فضلا عن مخالفتها لآيات الله العليم الخبير . مقولة كاذبة وفاشلة .

ويقول العلي الكبير

«إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» يونس ٦٦ .

ولنسأل العلماء الماديين والذين يشايعونهم :

من أين وجد الأكسجين في الجو؟

ومن أين جاء الماء الموجود في الأرض؟

ومن الذي أوجد الحبوب والبذور لكل ما نراه من الزرع خضرا وفاكهة وحبا ؟

وقد بحث بعضهم ذلك وكانت الإجابة - عند البعض - أن «الطبيعة» هي التى أوجدت كل أولئك؟ وهم يعلمون أن «الطبيعة» ليست إرادة .. وإنما انسجام لكل سنن الكون ومع الإنسان !!!

فأين يذهبون ؟

البشر .... ذرية ادم بطل البشر
أزلاً ...... وأبداً

كم يكون عدم التوفيق عند استنباط العلم، أن ينهار الإنسان لمقولة ما أو فكر معين له نغم أو ظهور، فيودي به إلى الغفلة عن الحق ..

فثابت في القرآن العظيم ..

أن قابيل ولد ادم .. بعد أن قتل أخاه هابيل .. نظر إلي سوءته ولم يعرف كيف يواريها .. فأرسل الله عز وجل إليه غرابا فعلمه كيف وماذا يفعل .. ويحكى لنا رب العالمين ذلك المشهد المأساوى الأول في الحياة الثانية (الدنيا) فقال سبحانه وتعالى :

«فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين» المائدة ٣١.

وفي ذات الواقعة - واقعة دفن الجثة - فقد دلتنا الحفريات أن الإنسان في حين الدورة الجليدية الرابعة كان يدفن موتاه متوسدين جنوبهم اليمني في وقار يدل على الإيمان الكامل (كما هو اليوم) ويضع معه من الأشياء ما تنبئ بأنه كان يؤمن بالبعث .

وقد رأيت من قبل أن آدم بعد بعثه في الجنة . وإهباطه إلى الأرض، قد وضع في غطاء وكذلك زوجه وبث الله منهما رجالا كثيرا ونساء .. كلهم في غطاء ..

فلو كان البشر الذين ظهروا في الوقت الذي قدرناه لمبعث آدم؛ نسلا لفرع آخر من البشر - كما يقول الماديون - لعرفوا كيف يدفنوا موتاهم بمثابة أنهم فعلوه في السابق بضرورة التواتر ..

ولكن ولأن الأمر ليس كما قال العلماء الماديون ، وإنما الحق هو ما قاله رب العالمين .. فقد جهل قابيل كيف يواري سوءة أخيه.

ولا شك أن الحفريات دلتنا على كيف كانت ذرية آدم متخذة من بداية الحياة الثانية

بداية جديدة لعملهم .. ليست ذات صلة وثيقة بالحياة الأولى التي كان فيها ذلك الصياد الماهر في صحارى وغيابات الجليد وحجم مخه ١٤٥٠ سم٣ .. أما في الحياة الثانية فكان الإنسان في حياته فنانا فأطلق عليه اسم «فنان الكهوف» أو إنسان العصر الحجري .. والذي كان حجم مخه أى جهازه العصبي) ١٣٥٠سم٣ وما زال كما هو حتى الآن ..

والملاحظ أن هؤلاء البشر لم يطرأ أى تطور عضوي على خلقهم منذ وجدوا وحتى الآن أى في ٢٥ ألف سنة .. وإنما كان التطور الملحوظ هو في مدى تقدمهم فكريا وماديا من حيث الصناعة حتى ظهر فيهم الفنانون القادرون على صنع التماثيل الدقيقة الجميلة مما يعطي الانطباع عنهم بحسن الذوق وتذوق الجمال ورقة الطبع ورقيق الإحساس والشعور.

وقد ظل هذا التطور الفكري سادرا منبسطا مترقيا ، ومع ذلك فلم يلاحظ زيادة في حجم المخ، بل ظل منذ فنان الكهوف منذ ٢٥ ألف سنة مضت على ذات الحجم حتى الآن ! .. وهو ما يعطي ولو قرينة أو حتى دلالة على عدم وجود أي تطور ، كما أنه يوحي أو يُشير إلى عدم توقع أو انتظار أى تطور في حجم المخ مستقبلا سيما وأن مخ الإنسان الحالي قد استطاع أن يقفز في مدارج المدنية والفن والحضارة قفزات هائلة .. وفوق خيال البشر .. بذات المخ الذي هو ذات حجم مخ فنان الكهوف.

ومن هذه المقدمة المادية، فإن بعض العلماء يقولون إن التطور الصحيح هو في مدارج الرقي الفكري وما يترتب عليه من تحقيق الارتفاع بالمستوى العام للبشرية وتحقيق مصالحهم في أطر من الحب والسلام والمصلحة الخالصة للبشرية بعامة ..

ويقول ويعمل بعض العلماء الماديين في المفاهيم البيولوجية ويرون وجوب تحقيق ثورة في الهندسة الوراثية والارتفاع بالمستوى الخلقي للبشر للنهوض بمفاهيمه وكوادره وأنماطه بهذا السبيل .. حتى يرتفع المستوى البشري بهذه الثورة البيولوجية في تطورعضوي جديد امتدادا لما سلف من تطور ..

ولا أشك لحظة في أن هذا المسلك البيولوجي الإلحادي سيؤدي إلى إهدار مفهوم

الأسرة .. وبالتالى ستضيع روابط الرحمة والصهر والنسب، كما سيضيع جمال ودفء الارتباط الأسرى والعائلي بل والبشري أيضا .. وإذا بنا بعد عدة أجيال .. كثرت أو قلت .. أمام أشكال أوصور بشرية جميلة ... وبداخلها قلوب تذكرنا جميعا ببداية خلق البشر في عصري الأيوسين والأليجوسين حين كان يمشي على يديه مع قدميه وله ذيل .. فإذا ما اجتمع في كهف أو مغارة طلبا للأمان من الوحوش .. وطلبا للدفء من الصقيع .. قامت الذكور .. فتغشت الإناث وصغار الذكور أو ضعافهم كلهم جميعا في حرية كاملة .. وطغيان ..

فإذا كان هذا التطور المادي له مفهوم التقدم لديهم، فلا شك أن هذه الهندسة الوراثية المادية تعتبر - رغم قصر وقلة ممارستها - المسئولة الأكبر في عقد وتكوين الجمعيات الكثيرة بين الملوثين خلقيا ، وفي تدبير وعقد الاجتماعات الدولية في خباء التنمية وزيادة عدد البشر لسن القوانين العالمية لإباحة الجنس والزنا وإقرار الشذوذ والإجهاض وتمجيد الشواذ جنسيا بدعوى تحقيق أسباب الصحة الجنسية للبشر ذكورا ونساء ..!

وكأن نتاج الهندسة الوراثية أن صارت الغريزة الجنسية تتغشي العقل تماما .. فإذا البشرية بعد هذا المشوار الطويل الذي استغرق أكثر من ٧٥ مليونا من السنين . تنادي بالعود علي بدء .. لاغية كل ما حققه البشر من قيم أخلاقية سامقة نابعة من الرسالات السماوية وأنماط سلوكية رفيعة ومراقي فكرية .. وروابط بشرية تتغلغل في مراجيد البشر .. فتتنزل بهم دركات لم ينزل إليها الحيوان.

« أولائك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » الأعراف ١٧٩.

ولكن المشيئة الإلهية قابضة على كل مشيئة في الوجود ، فما شاء الله يقع وما لم يشأ لا يقع "وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين» آخر التكوير .

ومن ثم فستبوء كل الأعمال المادية بالفشل الذريع، فيقول رب العالمين : «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم

يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون، ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون» الأنفال ٣٦، ٣٧.

ذلك بأن خلق البشر كان عند الله عملا عظيما «قل هو نبؤا عظيم» ص ٦٧ ، والعظيم - عند الله عز وجل - هو ما لا يمكن تصوره ولا تخيله .. هو أبعد .. ومن هنا كان خلق البشر عملا عظيما.

لقد قال عنه الماديون إنه مادة ميكانيكية ذاتية .. ولم يكن لهم سند إلا ظنٌ عبيط .. سرعان ما أثبتت قوانين المصادفة والإحصاء الرياضي أنه أمر أو فكر فاشل نظريا - وماديا ..

ولأن البشر هو أعظم ما خلق الله سبحانه - بعد السماوات والأرض - فلا بد أن يكون ذلك لعلم الهي لا يعلمه إلا هو الله.

وحتى نحاول أن نلم بأطرافه .. نذكر أن العلم بإطلاق يُعرف بأوله وآخره وظاهره وباطنه لقوله تعالى في بيان موطن العلم :

«هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» الحديد ٣

فما أول البشر؟

إن الله عز وجل - خلق البشر أزلا نفسا فقط .. يقول سبحانه للبشر في الدُنيا مستشهدا بهم وعليهم في الأزل :

«الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون» السجدة ٤، وكذلك آيات الغاشية «أفلا ينظرون .. وإلى السماء كيف رفعت .. وإلى الجبال كيف نصبت .. وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر».

والتذكر استحضار الماضى إلى الحاضر .. والماضي الذي يطلب إلى الناس الآن

تذكره هو ما رأته نفوسهم أزلا لمشاهد خلق الأرض ومشاهد دخان السماء وبناءه سبعاً ورفع السماوات وتسويتها وتزيينها بالنجوم .

ويشهد خلق الشمس من قبل .. كل هذه المشاهد التى حدثت أزلا ثم في أثناء الحقبين الأخيرين .. كلها أمور لم يشهدها الجن .. ولكن شهدتها نفوس البشر .. البشر ذرية ادم وغيرهم من قبلهم .. الذين هلكوا ولم يستدعوا إلى الحياة الثانية .

والقرآن قديم .. يعني أزلي . مكتوب فيه

«هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظملات إلي النور وكان بالمؤمنين رحيما » الأحزاب ٤٣ .

وكلمة «يصلي» فعل مضارع تفيد الصلاة وقيام الصلاة من الله والملائكة منذ كتبت أزلا على البشر .. ولا صلاة إلا على موجود في واقع الوجود ..

ذلك أول البشر ... النفس ... التى هي حقيقة الإنسان

فما ظاهر البشر ؟

ظاهر البشر فريد وخاص بالبشر وحده لا يشاركه فيه غيره ..

فهو صاحب بشرة من دون ما خلق الله عز وجل

وهو المخلوق بشرا بهيئته الكاملة في أدني الخلق دفعة واحدة بغير سنة التطور للمخلوقات الأخرى.

وهو المخلوق الوحيد الذي تم تسويته ليكون في أحسن صورة وسيدا لجميع المخلوقات في الأرض.

وهو المخلوق الوحيد الذي عُلّمَ أبوه علم الصناعة فجاس بها في السماء وغاص بها في البحار ...

وهو بهذه المثابات كلها الذي كرّمَه ربُه فجعله الخليفة له في الأرض.

وهو من ثم الذي سجدت له الملائكة سجود تقدير طاعة للعلي الكبير . ولقد كرمه

ربه في ظاهره تكريما كبيرا وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق. فجعل له قبرا يوضع فيه بالتكريم خاصا به دون كل المخلوقات

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» الإسراء ٧٠.

ومطهرة للبشر في ظاهرهم مع باطنهم فقد أنزل عليهم اللباس فسترهم وزينهم وأسبغ عليهم نعمة الرقي والانفراد بالسيادة على غيرهم ..

«يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكّرون» الأعراف ٢٦ وجعله ربه العظيم نسبا وصهرا .. فخلق له نظام الزواج .. لا لإشباع رغبة جنسية كما كان في مجتمع العراة ... وإنما لتقنين الغريزة مع التناسل فيكون التناسل طبقا لسنة اجتماعية (نسبا وصهرا) توثيقا للروابط البشرية وإيجادا للمجتمعات (شعوبا وقبائل) مترابطة متآلفة متجانسة متوافقة فتؤدى إلى البشر الأقوياء .. اجتماعيا وصحيا .

وطهر ربنا عز وجل الزواج كنظام بتوسيع رقعته إشباعا للغريزة ودرءا للمفاسد الاجتماعية وعلاجا لآثار الكوارث التى تقضي على الرجال أكثر مما تقضي على النساء سيما في الحروب.

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل من بعد ذلك التقوي مطهرة عامة .. فحصَّن المجتمع الإنساني من كل شوائب أو مثالب الماضي ..

ثم إنه سبحانه جعل للبشر بيوتا .. قصورا .. ولم يجعل ذلك لأحد غيره أبدا .

فذلك ظاهر الإنسان في موجز شديد.

فما هو باطن البشر؟ بعد "الروح الإلهية" التى نفخت فيه من الله تبارك وتعالي ..

إنه المخلوق الوحيد الذي جعل الله عز وجل في قلبه لطائف ربانية ، ففي قلبه مع البصر البصيرة وقوة عقل الأمور وجعل فيه الفؤاد أداة الفقه والاستنباط والسمع والرؤية

بالمكاشفة الربانية . وجعل فيه النُّهية التى تنهى عن الفشحاء والمنكر .

ثم إنه من رأفة الله بالبشر أن جعله فيهم أولهم «لبّاً» وهي لطيفة الإقامة على الطاعة التلقائية لمكونات فطرته التى فطره الله عليها . فهو يعلم الحق ، فالحلال بين والحرام بيِّن ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (استفت قلبك) ، فإذاما كان الإنسان سويا على فطرته وحدث أن كذب رأيت على قسمات وجهه أمارات الخجل !! حياء مما فعل .. ومن هنا كان الحديث الشريف (لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء) . وقوله صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ..

ثم إن الله تكملة لهذا الخلق البشري العظيم جعل له دار محفوظات أعظم من أى عظمة صناعية ، فجعل له صدرا حفيظا ، إذا أردت استخراج شيئ منه كان ذلك في أقل من لمح البصر.

وأخيرا حذره من غواية الشيطان وأمره بأن يتخذه عدوا..

فما هو آخر هذا البشر ؟

إن آخره متصل اتصالا تاما بأوله

فالإنسان .. هذا البشر .. هو المخلوق الذي خلقت من أجله السماوات والأرض .

وهو المخلوق الوحيد الذي كلمه ربه في البداية قبيلا وهو أيضا المخلوق الوحيد الذي يكلمه ربه في يوم القيامة قبيلا ..

فما هو مآله الذي يؤول إليه وقد خلق أزلا ؟

إن هذا المآل محدد بأحد أمرين :

إما النار خالدا فيها أبدا

وإما الجنة خالدا فيها أبدا.

وإذا فمآل البشر لا ينتهى أبدا ...

اراه نوراً فوق الذروة عالياً

إن قافلة البشر ، بكل ما فيها من نجاحات وإرهاصات .. وسقطات .. تسير .. وستظل تسير إلى أن تأتى إلى النهاية التى وصفها لنا رب العالمين في عدة سور من الذكر الحكيم.

ولهذا

ومن قبل أن نطرق بابها أو نتناداه

فإن ثمة مقولة يجب أن نذكرها لأنها أكثر من أن تكون نورا للبشر وحكاية البشر ..

فخلق عيسى بن مريم عند الله كمثل آدم خلقه ربُّه من تراب

ولم يقل ربنا عز وجل إن خلق عيسي مساوٍ لخلق آدم . وإنما استعمل أداة التشبيه وهى كلمة «مثل».

ذلك بأن آدم خلق في الحياة الثانية بعثا من تراب جامد هو الصلصال كالفخار .

وأما عيس فقد خلق من تراب متحرك هو أمه مريم بنت عمران ..

أما «الروح» فهي فيهما على سواء .. من الله عز وجل . وكذلك الأمر كن .. فآدم خلق بكمال القدرة . أما عيسي فخلق بكمال القدرة والسنة معا. فقد حملته أمه بكمال القدرة ثم وضعته بكمال السنة أى كماتضع النساء .. ثم إن عيسى كان صبيا ثم طفلا ثم شابا ثم رجلا فكهلا لثلاث سنوات ..

أما آدم عليه السلام فكان كما وصفناه آنفا رجلا كاملا في أحسن هيئة دفعة واحدة في هذه الحياة الدنيا هابطا من الجنة فوق السماء ..

ومن ثم فإن ادم وعيس يوكل رنسان يشتركون جميعا في الخلق من التراب وفي نفخ الروح فيهم وفي كن فيكون. ثم إن كلهم جميعا يتساوون في البشرة التي هي علامة الإنسان، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

ولكن يوجد ذلك البشر الذي أراه نوراً فوق الذروة عاليا .. ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أسماه خالقه سبحانه محمدا للبشر .. وأحمد لله تعالى ..

وخلقه ربُّه فكان أول الأمر، فهذا جابر بن عبد الله يسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلت ما أول ما خُلق يارسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : (نور نبيك ياجابر).

وتقول الأحاديث النبوية أنه أخذ من نور الرسول فخلق الكون وخلق ما في الكون، فكان الباقي له خلقا وملء القلب نورا حتى يكون في الحال واللياقة التي تعطيه مكنة رؤية الرحمن وتعلم القرآن وهو وحده في ملكوت الله عز وجل قبل خلق نفوس البشر بزمن لا يعلمه إلا الله.

يقول العلي الكبير

«الرحمن علم القرآن» الرحمن ١ ، ٢ .

وتقول القواعد الأصولية اللغوية إن الكلام في مثل هذه الحال يقتضى بيانه وجود كلمة تحدد معنناه، وهو ما يسمى «اقتضاء النص» أي أن الكلام يقتضى لبيان معناه الإتيان بكلمة تحدد مطلوبه ومفهومه.

وهكذا «الرحمن . علم القرآن» فالمطلوب اقتضاءً هو بيان من هو المتلقي للعلم حتى يستقيم الكلام بتقديره؛ وقد كان ذلك قبل خلق الإنسان. فالله سبحانه وتعالى يقول «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان. علمه البيان» وكلام الله سبحانه عظيم الترتيب فائق الدلالة .. إذاً الرحمن علم القرآن قبل خلق الإنسان،، والإنسان تعلم البيان .. فمن الذي تعلم القرآن ؟ قبل خلق الإنسان .

إذا لابد أن يكون هو مبلغ الرسالة القرآنية محمد صلى الله عليه وسلم [1] .

---

(١) طبقا لقاعدة اقتضاء النص وهى من طرق دلالة النص أول القواعد الأصولية اللغوية التى لا تفهم الأساليب القرآنية إلا بها. كتاب أصول الفقه / ١٥٨ ، للشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله.

وذلك أنك باستقرائك للقرآن تجد أن الله عز وجل علم الرسل جميعا وهم في بداية بعثتهم في الأرض. إلا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي علمه ربه القرآن في ملكوت الله الذي لم يكن به إلا تلك النفس المحمدية النور .. فما أن بعثه الله للناس حتى أمره أن يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون أى أنه بعث مُعلماً ..

ولأنه كذلك

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عندما يوحى إليه بطائفة من القرآن يتعجل الوحى .. كذلك الذي يحفظ شيئا ثم غفل عنه نسيانا .. فإذا ذكر بشىء منه تعجل بقيته فيقول رب العالمين :

«ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه» طه ١١٤. ويدخل هذا في أسرار معنى ومعاني قوله تعالى « .. كذلك لنثبت به فؤادك» الفرقان ٣٢ .

وأخبرنا الرحمن الرحيم أنه سبحانه يصلي وملائكته على الرسول .. والقرآن قديم، وإذا فالصلاة قديمة أي أزلية على سيدنا رسول الله وعبده .

ولا يحسبن أحد أن ذلك مساوٍ لصلاة الله وملائكته على نفوس البشرعنده. كلا إن هناك مليارات من السنين لا يعلمها إلا الله تفرق أحداثا بعضها عن بعض .. وتفرق وجود الأشياء عن بعضها البعض .

وكان الرسول في ملكوت الله عز وجل وحده نفسا نورانية وروحا وسرا وعين سر عبداً لله ، كما كان أيضا وحده في ملكوت الله حين رأى آدم وهو على وشك بعثه خليفة .. مجندلا بين الطين والماء كما روت السنة المطهرة .

وكان الرسول أيضا وحده في ملكوت الله عبداً لله الأحد الصمد وقد جمع ربنا النبيين في الحياة الأولى وقد أخذ عليهم موثق نصرة عبده أحمدَ لمّا جاءهم وأخذ عليهم الموثق والإقرار.

ولا شك أن من كان هكذا لابد أن الله سبحانه يُعدُّه لمهام عظيمة تتطلب إعدادا خاصا وتتطلب خصائص وأنوارَ تتوافق مع مهام هذا الرسول .. وهو الذي سيبعث للناس كافة ولكل العالمين .. برسالة يحفظها الله من التحريف ومن الهجر ومن التخاذل ومن القعود ومن الالتفاف حولها بقدرته جل جلاله إلى أبد الآبدين .

إذاً لابد من رسول له قلب أقوى من الجبل وله ضمير أنقى من البرد وله عزيمة لا تلين ..

ويبين العلى الكبير الكريم ذلك في قوله تعالى :

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» الحشر ٢١ .

ومن ثم ، يكون التنزيل من رب العالمين

يتلقفه جبريل عليه السلام وينزل به من سماوات سبع يسأله الملائكة ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير

وتضع آيات ربنا توثيقا لخطى جبريل في قول العلي الكبير سبحانه : «وإنه لتنزيل ربُّ العالمين . نزل به الروح الأمين – على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين» الشعراء ١٩٢ - ١٩٩٥.

فما أصاب الرسول الكريم إلا الخشوع لوجه ربه الكريم من كثرة انفعاله صلى الله عليه وسلم وفرط اليقين.

وأنزله رب العالمين في حفل مهيب الجلالة في ليلة مباركة ليلة القدر في موكب ملائكي على رأسه جبريل الروح القدس، أنزله ربه ومعه كتابه في قلبه نوراً فكانا نورا على نور، كوكبٌ دري تنزل من عند رب العالمين إلى كل العالمين .. حتى إذا كان مطلع الفجر .. وضع جبريل الكوكب الدري في جبين عبد الله بن عبد المطلب .. حتي إذا وضعه في رحم آمنة، فقد أدى مهمته في هذه الحياة وانتقل إلى بارئه ..

«فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون» الأعراف ١٥٧ .

وقواعد النحو تنطق بكل صراحة الواقع المادي الصحيح القوي بأن الهاءات سالفة الذكر تعود جميعها على «الرسول النبي الأمى» في صدر الآية صلى الله عليه وسلم. وتقول بأن القرآن النور في قلب الرسول أنزل مع الرسول .. ولاعبرة لقول يتخطى قواعد اللغة النابعة من كتاب الله .

لذلك كان ماكان من خصوصيات الرسول الكريم على جميع العالمين، فهو صلى الله عليه وسلم الذي يصلى عليه رب العالمين بالتخصيص، وهو وحده الذى أسرى به ربه عز وجل وعرج به إلى الأفق الأعلى المبين حيث رأى الله العظيم بفؤاده في مرتبة قاب قوسين ثم رأي ربه العظيم مرة ثانية ببصره لا يزيغ عند سدرة المنتهى ، وهو الذي نصره الله بغير ماجند هنالك من المؤمنين وهو الذي أمره ربه وحده تكليفا بالقتال في سبيله وأن يحرض المؤمنين .. وهو الذي يعرض عليه جبريل ملك العالم أويلحق بربه فيختار رب العاملين.

ويُقبض رسول الله، ويلحق بالرفيق الأعلى، بشرا توفاه ربه بملك الموت عزرائيل في حضور جبريل .. ويُسجى من بعد سحر ونحر عائشة أم المؤمنين علي فراشه الخالد في العالمين وسادة حشوها ليف نخل يتأفف منه أى إنسان مفتون ، ويتغشاه كل عليم .. ويأتيه صاحبه أبو بكر ويكشف عن وجهه الشريف وقبله وبكي وهو يقول : بأبي أنت وأمي يارسول الله والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التى كتبت عليك فقد مُتها [(١)] .

فلم يكن الرسول من البشر الذين عاشوا الحياة الأولى وأهلكتهم الدورة الجليدية الرابعة مثل بقية البشر ذرية ادم ..

فنحن متنا مرة في الحياة الأولى حياة السابق .. ونموت مرة ثانية في هذه الحياة الثانية الدنيا حياة القابل عند حلول الأجل .

(١) تفسير بن كثير ، جـ ١ / ٤٠٩.

وآية غافر ١١ التى يقول رب العالمين فيها لفتا إلى عقولنا وأفئدتنا

«قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل»

فواضح أن كلمة الحياة في أحييتنا لا يمكن أن تنصرف إلى معنى البعث .. فالبعث ليس له مفهوم «الحياة» بأقطارها وحذافيرها المعروفة التى تبدأ بمولد وتنتهى بوفاة وما بينهما صُرف كثيرة بقدر "عمر" الإنسان ..

كما أن كلمة «أحييتنا» فعل ماضٍ والقول بعدها هو عن الاعتراف بالذنوب فيما كان لهم ومنهم في حياة كانت ثم انتهت . فهي كلمة إذا تُقال حين البعث عما كان في الحياة الثانية مخالفا لعهود البشرية وموثقهم في الحياة الأولى .. وما هو عليه في حياة الاختبار .. الحياة الثانية .. فالبعث من ثم ليس حياة .. وإنماهو وقفة حساب ليبدأ بعدها الحياة الخالدة «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول ياليتني قدمت لحياتي» الفجر أى الحياة الخالدة ..

عند اليقين

إن لحظة نهاية الحياة تستحق من الناس المعرفة والعلم، حتى إذا صاروا في علم اليقين بها، حسبوا لهاحسابها، واستعدوا .. وظاهروا هذا الاستعداد بما يجمل بهم له.

والله سبحانه أخبرنا أن الإنسان يموت برسل الموت في قوله تعالي :

«قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» السجدة ١١.

أو يموت بأمر من الله ، كهؤلاء الذين يموتون دفعة واحدة في كارثة طبيعيةأو حربية في قوله تعالي :

«هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك» النحل ٣٣.

وأن رسل الموت إما أن يضربوا الموتى لكفرهم كما في قوله تعالى : «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق» الأنفال ٥٠.

وإما أن الملائكة رسل الموت يلقون على الميت السلام والبشرى بالجنة إن كانوا مؤمنين وعملوا الصالحات كما في قوله تعالى :

«إن الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» النحل ٣٢ .

بل إن من الناس من يذوق الموت في الحياة الثانية (الدنيا) فيلحق بالجنة حيا يرزق فيها وصلا بغير فصل ولا قطع؛ كما في قوله تعالي : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون» آل عمران ١٦٩.

فهذه ثلاث حالات عند اليقين .. عند الموت

وقد ترى معي أن «البعـــث» الذي هـــو أهـم ثانـى أصول الدين بعـد الأحـدية الإلهية والمبعوث بالرسالة المحمدية ، يكون يقينا لحظة الموت بعد أن كان علما فقط في الحياة الدنيا أو علم اليقين لدى أصحاب القلب السليم ... الذي تفكر بالحق لم يلحق به دنس.

الناس .... والبعث

لا أريد أن أذكر الآيات القرآنية الكثيرة التي استنكر فيها الكفرة البعث بعد الموت .. فلقد كان عدم التصديق العقلي بالبعث أهم دافع لهؤلاء بعدم الإيمان بالبعث وبالرسل الاثنين معا .. حتى وإن كانوا يؤمنون بالله ويتخذون من الأصنام والأوثان آلهة !! تقربهم إلى الله زلفى !!

فالبعث في ذاته كان موضع إنكار عقلي واستنكار عملي كما في قوله تعالى :

«قال من يحيي العظام وهي رميم» يس ٧٨.

فرد الخالق العظيم :

«قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» يس ٧٩.

ولكن العقل الإنساني في إبان الحياة الثانية الدنيا، ولأنه في غطاء ؛ ولأنه يعقل الماديات ويتفهمها، فإن له مع الغيبيات معركة فكرية دائما .. ذلك بأن العقل فيهاليس أمامه ماديات يراها ببصره أو يسمعها بأذنه .. فيعقلها أي يربطها بأسبابها ؛ ومن ثم نجد أنه عندما يسمع ويرى يصدق فيؤمن بما لم يكن قد قرأه أو سمعه قبلا ..

ويحكي لنا ربنا عز وجل عن ذلك في الكفرة .. فيقول تعالى وتبارك :

«ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » السجدة ١٢.

ولأن البعث واقعة مادية .. إيجاد لما كان قد فني .. أي أنه خلق .. ولأن الخلق أمر تختص به الذات الإلهية .. كما أنه اسم من الأسماء الحسني .. فإنه سبحانه لا يُطلع عليه أحدا .

ولماكان «كيف» البعث فوق الفقه البشري؛ فإن الناس قد تتلاعب في صدورها الهواجس .. مع وسوسة الشياطين .. فالله سبحانه قد أمات الناس منذ ملايين السنين

ولم يبعث منهم أحدا .. وحتى آدم وبعثه فإن القول فيه مختلف بسبب عدم انتظام صحيح فقه وتنفيذ قول الله تبارك وتعالى :

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» العنكبوت ٢٠.

ولعلك قد رأيت ما سبق بيانه في هذا الكتاب وربما في غيره أيضا كيف أن نظرية التطور منذ البداية .. الماء ثم الخلية الحية المفردة .. إلى آخره قد أعطت العلماء الماديين والفكر المادي على سواء الخط الذي سارت عليه الكائنات جميعا حتي صاروا أسماكا .. ونباتا .. وحيوانا .. وناسا ..

وهذا الخط التطوري المادي يعطي الفكر المادي الدليل القوي علي نفي «البعث» في الآخرة ومن ثم عدم التصديق .. ثم الكفر ..

لأنه كيف يكون بعثاً - عند الماديين - للبشر جميعا في لحظة آنية .. !! وقد استغرق خلقهم وتسويتهم أى تطورهم عشرات الملايين من السنين !!

«فالبعث» إن هم أريد لهم أن يصدقوه ؛ كان يجب - عندهم - أن يكون بذات الطريق الذي به نشأ الخلق أول مرة . فيستغرق ملايين السنين كذلك .. هذا إن كان ثمة دليل مادي لديهم على إمكان العودة إلى الحياة ..

ذلك بأن الفكر المادي أيضا؛ وإن كان قد اتخذ من مقولة تدخل قوى غيبية .. أسماها الطبيعة .. كسبب من أسباب أو عوامل التطور .. إلا أنه لم ير .. ولا يرى أنه يمكن للطبيعة أن تحيي الأموات وهي رميم لسببين.

الأول أنه لم يسبق للطبيعة أن فعلت ذلك ..

والثاني ترتيبها على الأول، فإن بعث الأموات غير ممكن أن يكون قانونا طبيعيا ذلك بأن القوانين الطبيعية إما أنها قوانين تنظيمية كتلك التى تحكم نظام حركة أجرام الكون - وهو ما يقول عنه القرآن العظيم بالتسخير - وإما أنها قوانين ظاهرية وهي التى تحكم الظواهر الطبيعية . وأما أنها قوانين فاعلة كتلك التى تحكم التفاعلات

الكيميائية.

ومن ثم .. فإن الفكر المادي لا يؤمن بالبعث لعدم وجود قانون يؤدي إلى إمكانه ..

ولما كان هذا الفكر طاغيا لأنه يستند إلى مقولات مادية ونظرية لها منطق يتفق بل يتوافق مع نظريتهم في الوجود !

فإن الإنسان ..

وقد رأى إبراهيم عليه السلام يسأل ربنا عز وجل «رب أرني كيف تحى الموتى».

فهذا الطلب عبَّر عما في نفس الناس من حيرة فكرية ..

فسأله ربنا سبحانه «أو لم تؤمن» وهو سؤال أو استفهام استنكارى .. فأجاب إبراهيم معبرا عن صدق إيمانه :

«بلى» أى آمنت

ثم عاد فعبر عن حيرة قلبه (الذي فيه لطائف التفكر)

«ولكن ليطمئن قلبي» البقرة ٢٦٠ .

وهذا عزير تتغشاه نفس الحيرة فيقول عندما يرى القرية خاوية على عروشها «أنى يحيي هذه الله بعد موتها» البقرة ٢٥٩.

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وعزير من أنبياء بنى إسرائيل .. فأراهما الله سبحانه واقعة البعث دون كيفه .. لأنه من قدرة الله ..

ولما كانت القدرة الإلهية من منطلق الرأفة بقلوب البشر رحيمة بهم ، فقد أرى الله عز وجل بنى إسرائيل وهم ألوف على أعينهم بعث قتيلهم الذي ادَّارءُوا في قتله فأمرهم أن يذبحوا بقرة غمسوا ذيلها في دمها وضربوا القتيل به فجلس حيا وأرشدهم إلى قاتله ثم عاد ميتا !!

وكانت واقعة البعث الرابعة لشقيق مريم المجدلية معجزة لنبوة عيسي بن مريم عليه

السلام إذ صرخ في قبره فقام حيا بإذن الله.

ثم أورد الله سبحانه الواقعات الثلاث قرآنا في محكم التنزيل الذي جعله الله العظيم الدليل والبرهان على العالمين ..

إذاً فقد أرى الله عز وجل الناس «البعث» ماديا على أعينهم وإن لم يرهم «كيف البعث» لأنه من سر القدرة الإلهية سر الخلق والخالق .

التفكر في البعث

الإيمان بالبعث والحساب والجزاء – أى اليوم الآخر – هو شطر الإيمان. أما الشطر الأول فهو الإيمان بـ «لاإله إلا الله محمد رسول الله». وما بين الشطرين فهي من مضامين هذا الإيمان .. ألا وهو الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين والقضاء والقدر .

وكل أولئك غيب

بل إن الحقيقة التى ظهرت أخيرا أن «المادة» أيضا غيب !! فأنا وأنت كنا نظن أو نعتقد أننا نرى المادة !! ولكن الحقيقة أننا نراها وهما وهى مُحيزة .. ذلك بأن وحدة المادة أو العنصر شطر جزئ المادة ، وهى «الذرة» فإن الإنسان لم يرها حتى الآن .. ! مع عظم المكبرات لدرجة أن التي تكبر الشيء بقدر ٥٠ مليون مرة لم تر الذرة حتى الآن !!

والحقيقة الثانية أن «الذرة» ذات حركة دائمة مستمرة ومهولة سواء كانت «ذرة جامدة» كذرات الفلزات .. الحديد والرصاص والنحاس . .. وعظم الإنسان .. أو «ذرة متحركة» كذرة خلايا الجسم ..

ومن ثم ، فإن الإنسان – في حقيقة الأمر . – في عمي عن العلم بسر المادة .

والحقيقة الثالثة أن المادة ليست قادرة بنفسها.. ولكن يوجد فيها القادر عليها ؛ وهذا أيضا سر من أسرار الخلق لا يعلمه إلا الله عز وجل ..

فالذرة التى لم تُر .. والتى هي أصغر شيء في الوجود والتى هي لبنة السماوات والأرض وما بينهما وما فيها جميعا !! إذا انشطرت نواتها خرجت منها قوة ونارا وضغوطا وشعاعا وحرارة .. كلها خرافية الشأن .. ونحن جميعا نعلمها في كل من هيروشيما ونجازاكي ومن ثم فنحن في غنى عن بيانها ..

وإذاً فكل مادة يوجد بداخلها «القدرة» القادرة عليها .. أو بتعبير أدق فإن كل «مخلوق» بداخله القدرة القادرة عليه..

ففي الإنسان ..

يقول الملائكة للميت الكافر وهو يحتضر ..أى في لحظة اليقين ..

«أخرجوا أنفسكم» فيتبين من ذلك أن كلام الملائكة موجه إلى القلب الذى يقدر على النفس .. فقال علماء الصوفية .. أوتادها . إن القلب أمير والنفس أسير .. والجوارح رعية ...

فالقلب إذا هو القادر على الإنسان ..

ولكن القلب كمادة ليس إلا أقوى عضلة في الإنسان .

ولكنه كخلق فإن فيه الروح ولطائف العقل والفؤاد والسر وعين السر .. وكلها لطائف ربانية وأسرار إلهية ...

ودليل ذلك قوله تعالى :

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور» الحج ٤٦.

وإذاً : فإن القوة الموجودة داخل القلب هي القادرة على القلب؛ ومن ثم جعلته هو المسيطر على النفس التى تسيطر بدورها علي الجوارح ..

فالإنسان إذاً كمادة مُحيزة في جسد بداخله القوة القادرة عليه .. التى هي في حقيقتها ذات الإنسان .. ومن ثم فالإنسان مادة أو خلية مادية بداخلها النفس بما فيها الروح وجميع اللطائف الربانية ، والسر وعين السر ..

ومن هنا؛ فإن الموت يكون بفساد الحلة أى الجسد – لأن النفس وما فيها لطائف ربانية لا يطرأ عليها شيء – إما بكارثة وإما بمرض وإما بانتهاء العمر الافتراضي للحلة ... وهو الشيخوخة .. ومن ثم تخرج النفس ومعها كل ما فيها وتذهب لتعيش في برزخ أى مكان محجوب عن رؤيتنا المادية .. ليوم البعث حين تعود لتدخل في حلة

جديدة [1] .

قال تعالى :

«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون« المؤمنون ١٠٠.

ومن ثم ، فالبعث يكون بعودة النفس حاملة كل ما هو فيها إلى الجسد الجديد بالقدرة القادرة على كل الوجود .. الله سبحانه وتعالى وهو يقول عن هذه القدرة

«ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة لقمان ٢٨.

«ونفخ في الصور فإذ هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» يس ٥١.

«فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون» الصافات ١٩.

ونجد أن أداة النسق المستعملة هي «الفاء» التي تفيد مطلق الجمع للترتيب باتصال . ومن ثم فإن الزجرة أي النفخ في الصور يتبعه فورا قيام الإنسان كاملا ودل على ذلك كلمة «ينظرون» في لا زمن !

وبيان كمال القدرة الإلهية في لازمن أى انيا ثابتة في قوله تعالى : «وإذا النفوس زوجت » التكوير ٧ .. فالنفوس تدخل كل منها جسدها فتنظر بعينيها ..

وإذا كان قيل إن نفخة الصور تمتد ٤٠ عاماً فذلك أمرلم يرد بكتاب الله العظيم كما أن استعمال الفاء كحرف عطف نسق لا يؤيد هذه المقولة بحدودها المتبعادة .. وإنما على العكس يفيد البعث بالتواصل بغير فواصل زمنية .

ومع كل هذا

(١) البرزخ لغةً يعني الحاجز ، والمقصود بها هنا هو حياة البرزخ أى ما بين الموت والبعث وهي حياة لطيفة تتفق مع لطائف النفس وما فيها ، فالموتى يرون الأحياء في الدنيا ، والأحياء في الدنيا لا يرونهم .. ويقول الباحثون في الروحانيات .. وقولهم يتفق مع طبيعة أو فيزيقا المادة - إن اهتزازات مادة النفس وما فيها تتوافق مع اهتزازات المادة الأثيرية ، والعالم الأثيري (اقرأ كتاب "على حافة العالم الأثيري" لمؤلفه جـ آرثر فندلاي ، ترجمة أحمد فهمي أبو الخير ، ص ٩٣ - ١٠٣) وأن الموت نقلة من عالم إلى عالم آخر.

ولأن القرآن يخاطب عقول الناس مع ثقل المادة فيهم وبطء نور اليقين إليهم ..

فعن الدليل المادي ؛ فقد ذكرهم رب العالمين بأجسادهم التى يثقل كاهلها على فكرهم في قوله تعالى :

«ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب» الحج ٥ ، وهذا الدليل مبني علي القياس المادي .. فكما أنكم خلقتم من تراب فستبعثون في الآخرة أي يعاد خلقكم من التراب أيضا ، والعلة واحدة وهى القدرة الإلهية وقد بينها لكم في بعث آدم في الحياة الثانية الدنيا من صلصال كالفخار فصار في أتم وأعظم خلق رجلا شامخا في هيئة جميلة سامق الطول ليس لها من قبل مساوٍ ولا مثيل ولا شبيه دفعة واحدة بغير ما تطوروتسوية ..

وكما بين العلي الكبير للناس على يد عيسى بن مريم معجزة تصدق نبوته ، ورسالة لبنى إسرائيل فجعل من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا كاملا دفعة واحدة في لا زمن ودون مرور بأى مرحلة تطورية ولا تسوية بإذن الله من قبل ومن بعد. شهدت على قدرة الله في أن يخلق ما يشاء على أطوار وأن يخلق مايشاء بغير أطوار معطيا للناس أن التسوية أطوارا إنما كانت لتكريس الوقار لله العظيم في مواجيدهم . وجعل الحفائر شهادة مادية مسجلة على النهج الإلهي ، لعل الناس ترعوى في هذه الحياة الثانية الدنيا .. وقد كانوا من قبلها في حياتهم الأولى مؤمنين وعلى يقين ...

فأولئك الثلاثة براهين مادية ثلاثة على أن البعث في لازمن فور النفخ في الصور ، برهان تصديق اياته المباركات في البعث ..

والدليل المادي العام أنه كما كان الموت خروجا للنفس من الجسد؛ فإن البعث عودة النفس إلى الجسد بكمال القدرة الإلهية .

أما الدليل النظري :

ففي قوله تعالى : «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» الروم ٢٧

فالدليل هنا ينصب على تصديق البشر بخلقهم لأول مرة بشرا في لازمن . آنيا .. ومن ثم فإن إعادة خلقهم بعد موتهم أهون عليه وأسهل وأيسر على الله العظيم .

ولم يترك الله عز وجل العقل البشري للأدلة سالفة الذكر فقط وإنما شفعها بدليل واقعي من حفريات الأرض.

فالمعلوم يقينا أن بداية البشر كانت كما علمتم آنفا ؛ ثم أخذت أطوارا عديدة على مدي ملايين السنين حتي تحررت اليدان واعتدلت القامة وضمر الذيل ثم اختفى وتراجع الفكان ومحاور العينين وتحسنت الجبهة وجملت الصورة فصار البشر في أحسن صورة أهلته لأن يكون سيدا للكائنات وخليفة لله العظيم في الأرض ..

ومن ثم

قال ربناالعظيم للإنسان في خلقه الثاني في هذه الحياة الثانية الدنيا :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؛ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير » العنكبوت ٢٠.

والنشأة الآخرة هي البعث

فيرجع الله سبحانه القدرة على البعث إلى ذات القدرة على «كيف بدأ الخلق» أي أن الخلق بدأ من التراب آنيا بمطلق القدرة الإلهية .. وكذلك البعث يكون من التراب بمطلق القدرة الإلهية آنيا لكل الناس .

وتطبيقا لهذه الحقيقة يقول لنا العلي الكبير :

« منهاخلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخري » طه ٥٥.

فالإيمان بقدرة الله على الخلق لأول مرة هو مناط الإيمان بالبعث قياسا . ولأن القياس الإلهي مبني على الحقائق الثابتة أى أم الكتاب .. إذا فهو دليل آكد طبقا لمفهوم

القياس عند الصوفية في الحكيم الترمـذي رحـمه الله تعـالى. أحد أوتاد الصوفية الأربعة [1] .

ثم جعل الله العظيم الرءوف بعباده بيانا حيا ودائما على قدرته على البعث في قوله تعالى عمايحدث في الشهادة التى نراها بأعيننا ..

«يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون» الروم ١٩ . ويفسر هذه الآية قوله تعالى :

«.. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » الحج ٥.

وقوله تعالى :

«وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون» يس ٣٣.

---

(١) القياس في منهج الإمام أبي حنيفة مبني على الظن بأن علة هذا الحكم تماثل علة ذلك الحكم ، ومن ثم كان القياس دليلا شرعيا ظنيا .. أما محمد علي الترمذي، فقد رمي هذا القياس الظني بأنه من باب المشاكلة .. وقرر أن القياس يكون برد الشئ إلي أم الكتاب التي هي قطعية الدلالة تنفيذا لقوله تعالى «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا» النساء ٥٩.

النهاية ...... ثم البداية

كل ما تقدم كان سردا لبعض فصول حكاية البشر، وهي فصول عجيبة ومشوقة .. وقد تبدو غريبة على الكثيرين الذين آثروا أن تبدأ الحكاية من ادم في الجنة ... ثم هبوطه إلى الأرض .

ولكن ألا ترى معي أن ذلك أمر مقطوع السبب . مجهول النسب ، يهدر قوله سبحانه «إن الله اصطفي آدم .... علي العالمين » .

وألا ترى معي أن الكثير من الآيات الكريمة آنفة الذكر تكون بلا سبب وعلى غير أساس من واقع الوجود إن نحن لم نبدأ الحكاية من بداية حدوثها منذ ٧٥ مليون سنة .. أى منذ بداية حقب الحياة الحديث .

وألا تري معي أن الأكرم للإنسان أن يكون كما بدأه الله في أدني هيئة ثم تطور حتى انتصر في ٧٥ مليو سنة علي كل ما في الأرض من شيء . .. زلازل وبراكين .. وعواصف وأعاصير .. ورياح ووحوش ضارية .. وعصر جليدي طويل موحش ثقيل .. فإذا به في النهاية البطل المغوار على الأرض . والقلب الفياض باليقين بالخالق الرحمن الرحيم الجبار..

وألا ترى معي أنه كان الأفضل للإنسان أن يؤدى هذه المسيرة ، فإذا هو مع تطور انتصاب الجسد وتحرير اليدين .. قد ترك الخلود إلى الأرض واتباع الهوى .. ترك الحيوانية الثقيلة القبيحة .. وانتفض رافعا رأسه إلى أمام فوجد أن الأفق إلى أعلى .. فوجه ضراعة مواجيده إلى السماء .. إلي خالق الأرض والسماء .. إلى رب العرش من فوق السماء .... فانتفض من التراب والطين وما كان قد توغل فيه من فحش إلى فكر قد ارتقى وارتفع به مما هو فيه فأدخله في نور آيات الرزاق الوهاب .. فاشتغل فكره بنور الربوبية وهدأ واستقر في رحمات خالقه .. ولين طاعته .. فأعطى الله موثقه بقناعة اليقين .. ومتانة وقوة البرهان والنور ...

لقدرأى البشر وهم نفوس نورانية .. هذه الأرض نارا تتأجج زمنا لا يحصى عددا ...
ثم رأوها وقد صارت جليدا آلاف سنين لم تحص لهم عددا ...

فلابد أن البشر بهذه المثابات.. كانوا ينظرون الى الارض والسماء مُطبقة عليها..
ولهيب الشمس لولا الدخان لكان يكويها .. فإذا بعدت الشمس كساها الجليد وجمَّد كل
ما فيها .. وخيم على الارض كلها .. شئ أشبه بالليل وما هو بليل .. طويل طويل
وكئيب . ومن فرط الهدوء فهو قاتل .. بتجميد أى نظر أو بسر .. حتى إذا اراد الله عز
وجل جلاها وقشع عنها هذا الليل البهيم .. ولو أنك كنت تنظر الى البشر لوجدتهم فى ذل
لوطأة الجليد وفى ذل اكبر للعجز، وفى ذل اعمق فى كثرة التضرع الى الله الرحمن
والاستغاثة بفضله.. لوجدت البشر بهذه المواجيد التى كرسها طول الزمن فجعلها فطرة لله
في وجدانهم.. فإذا هم بوجدانهم .. بصدورهم .. بقلوبهم .. بكل كيانهم خاشعين .. بل
خائفين .. بل راجين .. بل آملين فى الله وقد أيقنوا أن الحب لله .. وليس الخوف منه ..
أرقى وأسمى وأكثر قبولاً عنده سبحانه .. فعطف وحنان المحبوب أجمل وأسرع وأوصل
من رضا جانب المرهوب المُخوِّف.. فتكرس ذلك فى نفوس البشر .. رغم ما هم فيه من
عذاب قد ألفوه .. ثم به سارعوا الى حب الله .. فجاءتهم رحمة ربهم .. فظل ذلك فيهم
حتى هلكوا جميعا عليه.

فيرى الانسان نفسه الآن .. ما كان عليه فى مرايا الحفريات بين طيات الصخر ؟
وما كان فيه فى تلك الحياه الاولى البعيدة من ملايين السنين .. وقد أيقن بالله العظيم
خالقا مدبراً حانياً، وأيقن بالله مطوراً خلقه من حال الى حال، رافعاً الانسان درجة بعد
درجة حتى اذا بلغ منتهاه وصار متفكراً في نفسه متفكراً فى الكون بعيداً عبر الافاق.. ثم
متفكراً فى الله الخالق.. ثم مناجيًا أن القوة لله جميعا ، متفكراً فى الله الخالق البارئ
المصور .. الله المالك المهمين.. فقد نقلته تلك المعانى الى جلال الانوار لبذل كل
الخضوع لله العزيز الجبار.. فكان منه الاستسلام الكامل لصاحب الملك والملكوت.

ولا شك ان الله سبحانه وقد وصل بالانسان فى هذه الحياة الثانية الدنيا إلى جعل مستقر الحكمة فى القلب البشري وهو على وشك ان ينزل اليه الرسالة العظمي فى قلب خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، إلا أن يكون الانسان قد صار قادراً على السمو بفكره فوق كل الماديات.. ليس سمواً جهاداً بالنفس فقط ولكن سمواً فى منهاج التفكر وإستنباط الحق فى الكون والبشر والحياة والابتلاء ..

وليس البشر بهذه القوة العقلية مع ما وهبهم وآتاهم ربهم من حكمة، عيالاً على الوجود، ولكنهم أسياد على كل موجود..

ومن ثم كان البشر مهيأ بكل هذا فى ظاهره وباطنه على احسان استخدام سمعه وبصره وفؤاده .. مع هداية الرحمن وأنواره فى رسالته ورسوله ؟

إلا قادرٌ على الاستمرار في الخشوع لربه والخضوع والطاعة فى حب واستسلام . وان وضع فى غطاء للابتلاء..

فذلك هو المنتهى الذى وضع فيه ادم عليه السلام منذ اهباطه من الجنة الى الأرض خليفة لله عز وجل ومن بعده كل ذريته فى غطاء يبتليهم رب العالمين بالسراء والضراء ليعلم أيهم أحسن عملاً :

فى إيجاد الدين وحفاظاً عليه. وايجاد للنفس وتقواها

وأيجادِ للعقل والفؤاد والتفكر بالحق والرقى فى مدارج الحياة.

وإيجادٍ للنسل وحفاظا على البشرية

وإيجادً للمال وحفاظاً على انفاقه فيما شرعه الله له.

وكل انسان اكتمل بناؤه ، وصلح للتكليف .. وُضع فى الاختبار .. وهو وعمله الى حلول اجله ..حتى اذا انتهى أجل السماوات والارض كان كل كون الله قد آل الى خالقه ومالكه..

ولأن هذه النهاية حتمية .. وصعبة جداً على البشر .. حتي أن مدى ضخامة رهبتها، وثقلها ، يشل العقل والاحساس البشرى عن الاقتراب من ذكراها !!

فيقول لهم ربهم فى موسى عليه السلام :

" إن الساعة آتية أكاد أخفيها " طه ١٥

ثم يمضي موسى

ويأتى عيسى عليه السلام فيقول لهم ربهم فيه وعنه

" وإنه لعلم للساعة " الزخرف ٦١ (١).

أى أن " عيسى وكيْف خلْقه" علامة على ظهور مجئ الساعة بعد أن كانت غير واضحة على بعثة موسي.

ويمضي عيسى بن مريم

وأنزل الله عز وجل رسوله النبى الخاتم فيبلغ الناس كل الناس

" اقتربت الساعة وانشق القمر " القمر ١ (٢) .

ثم ابلغهم بعد ذلك ..

" أتى أمر الله فلا تستعجلوه " النحل ١ .

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم لصحبه : (كيف انعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متي يُؤمر فينفخ) قالوا : فما نقول يارسول الله.

---

(١) أما الأحاديث التى تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم بعودة عيسى بن مريم، فترد لعدم اتفاقها مع المنص القرآنى. لأن الهاء فى " وإنه" تعود على قوله تعالي " إن هو إلا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل" الزخرف ٥٩، اى اثناء رسالته لبنى اسرائيل.

(٢) وفعلا انشق القمر نصفين نصف فوق جبل قبقعان ونصف فوق جبل الصفا وظهر جبل حراء بينهما وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (اشهدوا اشهدوا) مختصر الطبري/٦٠٤ وابن كثير حـ٤/٣٦١ ، ٣٦٢ وصفوة التفاسير حـ٣/ ٢٨٣ والبخارى ومسلم والترمذى وابن حنبل وتفسير الجلالين ٤٦٩ .

قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا) (١) .

وليس معنى هذا أن "الواقعة" ستقع خلال بضع سنين. فذلك ظن غير راجح .. بل ان الأمر أمامه مشوار قد يطول .

ذلك بأن الله عز وجل أخبرنا بأن الارض ستأخذ زخرفها وتزين ويظن اهلها انهم قادرون عليها .. وهذا لم يحصل بعد، فالصحارى التى تقبل الزراعة مازالت خربة .. وكثير من البشر مازالت مساكنهم لا تصلح للبقر !! بل ان اكثر الدول فى حاجة اكيدة الي من يأخذ بيدها لتعمر انسانها وأرضها من بعد انها مازالت في تدنى يرثى له ..

وإذا كان ذلك، فإن الانسان، وهو فى سرعة الجرى فى السماء مازال مربوطاً بسرعة الصوت وإن ضاعفها اضعافاً.. الا ان المأمول ان يجرى بسرعة الضوء اضعافاً مضاعفة حتى يلتقي مع سرعة الجن فينفذا من اقطار السماوات والارض ويرسل عليهما (الانسان والجن) شواظ من نارٍ ونحاسٌ فلا ينتصران !!.

ولان ذلك لم يحدث.

ولأن الطاقة واستعمالاتها مازالت تدور في معظم الدول وافاق الارض بالبترول والفحم، فتسير سياسات اكبر الدول لعشرات السنين فى القابل ترتيبا علي البترول وغازاته ومؤامراته.

ومن ثم، فإن سرعة التقدم المدنى لزخرفة الارض ستكون متأخرة طالما أنها لا تركن بعد لضوء الشمس وانشطار النوى حتى يسلس جرى المركبات فى تيه من الهوى والجوي.

وليس لدى البشر بعد .. معلومات كُبرَ عن جسم الانسان ولا كيْف السيطرة على

(١) اخرجه الامام محمد بن عبد الوهاب في كتاب " اصول الايمان/ ٢٤ ، ٢٥ عن الترمذى والحاكم بسندهما عن ابى سعيد الخدرى رضى الله تعالي عنه.

بعض الامراض الخطيرة.. والانفعالات النفسية وعقدها ولا الافرازات التي تخرج من بعض الغدد المهمة مثل البروستاتا .. ويقف العلماء حيارى وفى دهشة (١).

بل أن المقولة عن الهندسة الوراثية ومحاولة السيطرة على الجينات والكروموسومات لابد وان تودى الي مشاكل ومخاطر غير خاف رؤاها الكثيرة وتوقعاتها الخطيرة على العالمين وأصحاب الرأى من الان.

ولا شك؛ ان السياسات الدولية لبعض الدول تسير في خطى مادية تماماً بالاستعلاء والتكبر تارة وتارات بالابتزاز والتدنى الخلقى .. حتي ظفرت بالاحتقار رغم انها مرهوبة االجانب .. الا ان استمرار التدنى قد يكون دافعاً الي قيام حروب كبري.

ثم ان التعليم الالحادي.. لابد وأن يؤدى الي الغاء الدين من صدور الكثيرين واصباغ الحياة بالالوان الزاهية والمبهرة.. ولكن في نفوس خربة وكيانات ميتة القلوب !! فإذا بما في الارض دنس ونجس فى أبهى حُلة وأجمل زينة .. وليس من مانع يمنع وجود القلة الطيبة التى تُمسك على دينها كالجمر في الايدي !!

فإذا ما إكتمل الزخرف وظهرت الزينة ودخل قلوب الناس الاعتقاد بأن الههم هو اهم !! وأن الامر بيدهم أتاهم امر الله يحكى عنه صاحب الملك سبحانه وتعالي :

" .. حتى اذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها ؟ أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون" يونس ٢٤ .

ولكن هذا ليس النهاية :

إنما هو تنظيف لمسرح الحكاية

فثمة أمور كثيرة لابد ان تقع لخير البشر طاعة لله عز وجل.

---

(١) كتاب " البروستاتا " للدكتور محمود سامى أبو رية / ٦٥ .

فلابد من أن يتم نور الله

" يريدون ان يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" التوبة ٣٢ ، ٣٣ .

أى لابد أن يغْلب الاسلام كل الملل والاديان المنتشرة في الارض رغم انف كل من ليس مؤمنا بمقوله الاسلام ورسول الاسلام وكتاب الاسلام قولا وعملاً.

فواقع الدين ، والدين عند الله الاسلام، وقع مادى صارم ، فى كل منهاجه وأحكامه. والتى منها القضاء علي المغضوب عليهم، فيدخل عليهم عباد لله عز وجل أولوا بأس شديد فيسوءوا وجوههم ويدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ويتبروا كل مفاسد المغضوب عليهم إهلاكاً وتدميراً ، فيكون ذلك قطعا لأصل النجس والخسة في الارض وإهداراً للتحالف الخسيس اللئيم بينهم وبين الضالين المضلين. وعودة المسجد ختام الاسراء وبداية المعراج الى اهله اصحاب القبلتين اصحاب اليقين.

وتقوم للإسلام منابر مرفوعة فى كل بقاع الارض بقوة الحق الالهى في كونه وفي عباده المؤمنين العالمين الصالحين، فينشروا الاسلام بالعلم اليقين من كتاب الله العظيم وكونه الفسيح الباهر .. علم الله الخالق البارئ المصور .. الذى خلق كل شئ ثم هدي .. وأودع علمه فى كتابه المحكم وفي صدور وقلوب المؤمنين الصادقين.

وإن الدعوة للاسلام بالعلم لهى الحق من الله العزيز العليم .. فليس ثمة مجال لدعوة عاطفية ولو كانت مشبوبة. ،إنما هى دعوة علمية مادية الادلة قاطعة البراهين من الذكر الحكيم برد، واقع كونه الواضح المبين، صادقة متوافقه مع نداء العليم الخبير .. أول ما نادى على الناس ان يقرءوا .. فخاطب عقولهم بماديات الخلق فى الحياة من علق .. خاطب عقولهم وأفئدتهم وحفز لذلك ابصارهم واسماعهم وان يشرعوا لذلك أقلامهم.. لقد خاطب مستقر التفكر والحكمة فى قلوبهم ان يتفكروا فى الخلق من علق .. ومن ثم فى كل ما خلق ..

" أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض، وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون". الاعراف ١٨٥.

وجعل التفكر في كل القرآن العظيم - الذي انزله بعلمه - فريضه على كل الناس والذى فيه تفصيل كل شئ فى الوجود.

" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم ولعلهم يتفكرون". النحل ٤٤ .

وما من ريب فى أن الدعوة للاسلام بالعلم لهى الدعوة بالحق والتى تهدى القلوب فعلم الله هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. يعنى لا يأتيه الباطل الان ولا في المستقبل .. لأن الحق من الله هو الدائم الى الساعة..

فإذا ما كان ذلك .

رأيت الجهلة والملحدين وذيول أبى جهعل صرْعى امام الحق لا يلوون على شئ إلا يُصيبهم الخزى في الدنيا والاخرة .. لولا يؤبوا راشدين الى مولاهم الحق مستغفرين تائبين .. "إنَّ الله يحب التوابين.." البقرة ٢٢٢ .

ونهاية الحياة الثانية الدنيا هى نهاية كل انسان وكل كائن الى اجله . حتى اذا اتت الساعة رأيت اشراطها الاولي ان تقوم دابة من الارض تكلم الناس

حتى اذا وقعت "الواقعة"، بعلاماتها المصورة في القرآن العظيم أروع تصوير فما يحدث في الارض زلازل تدكها دكاً دكاً وتنسف الجبال نسفًا وتشعل البحار ناراً وتنكدر النجوم ويُجمع الشمس والقمر.. فيصير "مسرح الحكاية" خرابا دماراً وناراً ...

ثم يأخذ الله القوى الجبار هذا الكون فيطوى السماوات بيمينه ويجعل الارض قبضته.. أي يقبض الارض - كما تقبض الانفس .. فتعود الى برزخ - كذلك الأرض تُقبض أي تعود غازاً كما كانت قبل أن تُشعل ناراً فى بداية الوجود. ويبدل الله سبحانه وتعالى ارضا اخرى غيرها .. وسماوات اخرى غير السماوات ويكون الكون أو الأكوان الاخرى الجديدة .. جنات ... وناراً ..

فقد انتهت الحكاية على الارض وسقفها السماوات السبع .. ولكن ما هو مآل البشر فى اجدائهم !؟

وأحسن ما يحكى عما يحدث للبشر نقلا لهم من الارض التى انتهت تماماً والسماء التى ذهبت والجبال التى صارت هباءً .. هو سورة ق . وليس قبل ولا بعد كلام الله العظيم كلام ..

" ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك؛ غطاءك فبصرك اليوم حديد. وقال قرينه هذا ما لدىّ عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد. منّاع للخير مُعتد مُريب. الذى جعل مع الله إلهاً اخر فألقياه فى العذاب الشديد. قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد. ما يُبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد. يوم نقول لجهنم هل إمتلأت وتقول هل من مزيد. وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . إدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد " ق ٢٠ - ٣٥ .

الاثنين ليلة ٢٧ من رمضان سنة ١٤١٥هـ.

الموافق ٢٧ فبراير عام ١٩٩٥.

صلاح الدين ابو العنين

المحامى بالنقض

أهم المراجـــع

- القرآن العظيم
- التفاسير القرآنية.
- السنة النبوية المطهرة.
- أصل الأنواع - تشارلس دارون - تراث الانسانية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣.
- أصل الإنسان - تشارلس دارون - تراث الانسانية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣.
- الرد على الدهريين - جمال الدين الافغانى- تراث الانسانية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣.
- الفتوحات المكية - محى الدين بن عربى- تراث الانسانية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣.
- الامام القشيرى - د. ابراهيم بسيونى، مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٢هـ.
- لطائف المنن - ابن عطاء الله السكندرى، تحقيق الامام عبد الحليم محمود شيخ الازهر، مجلة كتاب الشعب ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦.
-الروح لابن القيم - الامام شمس الدين بن القيم الجوزية - مطبوعات محمد صبيح عام ١٩٥٠.
- الحكيم الترمذي - د. عبد الفتاح عبد الله بركه - مجمع البحوث الإسلامية
- القصص القرآني - عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- قصة السماوات والارض - د. الفندى، د. محمد يوسف حسمن ، دار الشعب ١٩٥٧.
- الجيولوجيا - د. حسن صادق ، وزارة المعارف عام ١٩٤٤.

- قواعد الجغرافيا العامة ، د. محمد عوض محمد - وزارة المعارف ١٩٤٣.
- التطور واصل الإنسان ، مجلة الازهر، د. محمدفوزى جاب الله ود. احمد فؤاد باشا ، مجلة الازهر ١٩٩٤.
- جسم الانسان ، د. عبد المنعم عبيد - الناشر شركة ترادكسيم - جنيف - سويسرا.
- علم اصول الفقه - الشيخ عبد الوهاب خلاف - المؤلف ١٩٤٧.
- مجلة ديوجين (مصباح الفكر) اصدار اليونسكو العدد ٥٤ تصدر عن مجلة رسالة اليونسكو ٨ - ١٠ لسنة ١٩٨١.
- اعرف نفسك د. يوستاس تشسر - دار الشعب ١٩٥٨.
- مطبوعات متحف التاريخ الطبيعى - نيويورك - عام ١٩٩٣ وزيارة شخصية - متحف نيويورك للتاريخ الطبيعى ١٩٩٣.
- جسم الانسان - برنارد جلمسر - ترجمة د. صلاح الدين سلامة ، دار المعارف ١٩٧٩.

الفهرس

صفحة

نبذة عن المؤلف

من مواليد طنطا في ٢ مايو ١٩٢٦

وتخرج في كلية الحقوق في مايو سنة ١٩٤٨

ودرس الشريعة الإسلامية بالدراسات العليا.

كما درس علوم اللغة العربية .. وسيظل ...

وكان وما يزال دائم الدراسة لعلم أصول الفقه وفقه الأصول

ودرس التاريخ العربي الجاهلي ثم التاريخ الإسلامي السياسي والتشريعي والسيرة النبوية المطهرة وكثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة ..

وطاف مع الإمام أبي حنيفة وابن حنبل وتلاميذهما ومشى كثيرا مع محمد بن علي الترمذي (الحكيم) ومع الإمام القشيري ثم ابن عطاء الله ... وانفعل بالفكر الصوفي الحقيقي العميق.

ومع هذا فقد درس الكثير من علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية وفكر مفكري الإسلام كابن رشد والغزالي .. الخ وفلاسفة المشركين ونظرياتهم في الكون وفي المعرفة وفي مناهج البحث ... وفي الإنسان .

وهو بهذا كله وغيره يدرس القرآن العظيم وسيظل.

واستخلص حقيقة منهج المعرفة والبرهان وضمنها كتابه الأول «الله والكون» ثم العلوم الكونية المستنبطة من كتاب الله العظيم وبهديه سبحانه، فقد عطف على إبداع حقيقة خلق الكون في كتابه الثاني «رحلة في أعماق الكون» وتبع ذلك كتاب «القمر في سنن الطبيعة» وهو تحت الطبع حيث سبقه هذا الكتاب «حكاية البشر» إلى النشر ...

وكل أعمال المؤلف مستقاة من النهج الإلهي في كتابه المحكم وفي كونه وفي حقيقة الإنسان المفطورين عليه .. لا يزيغ إلى غيره ولا مقهورا لشرق ولا لغرب .. فالحق عند الله سبحانه وحده ... «وقل الحق من ربكم ...» .

الناشر : شمس الفكر ، رقم دولى 2-5653-00 - 977

٦٩ شارع جمال الدين دويدار - المنطقة الثامنة - مدينة نصر ، ت : ٢٧٣٦٣١٥

رقم الإيداع : ٩٥/٤٢٧٢